عمر لطفي النجار

الولاية والنبوة في الفكر الصوفي

بسم الله الرحمن الرحيم

- مقدمة:

إن علاقة النبي بالله واضحة جداً، وفهمها بسيط لا يحتاج إلى التكلف والمشقة فلا غموض ولا التباس فيها، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وبميزان مقاصد العقيدة والتشريع يكون الاختيار بين الكفر أو الإيمان، أما أسس العلاقة بين الله والنبي فهي كما يلي:

1 – الاصطفاء: وهو اختيار الله لواحد من البشر، يطلق عليه اسم النبي.

2 – الملك جبريل: هو الواسطة بين الله والنبي، لنقل رسالة الله وأوامره إلى النبي.

3 – رسالة الله تحوي الشريعة وأحكام السلوك، والعقيدة التي لا سواها عند الله.

4 – النبي هو رسول الله إلى البشر، وهو مؤيد من الله بما له إثبات صدق دعواه، ابتداء بالبديل الأفضل، انتهاء بالمعجزات.

أما الصوفي، ومن أجل الوصول لعلاقة مع الله أو لتحصيل المعرفة أو العقائد، فقد اتبع منهجاً خاصاً به، وما يكون عنه بين يديه، هو كل الحقيقة لديه، وأهم أركان منهجه هذا هو ما يلي:

1 – الرياضات: لا فرق لديه إن كانت بدنية أو عقلية تأملية، وهي المعبرة عن الجهد والتعب الذي يبذله الصوفي للوصول إلى ربه أو إلى ما يجب أن يعتقد.

2 – الطريق الصوفي طويل وذو مراتب متعددة: مريد، مقامات، وصول. ولكل مقام ما يخصه من الشرع النبوي من جهة، ومع ما يصبح عليه من العقائد من جهة أخرى، وقد يصطدم الولي بالنبي، وبما للنبي من تشريع وأتباع كثر، كان للولي أسلوبه المعقد في صراعه وطرح أفكاره، وحيث كان له الوصول إلى الله كما يعتقد، راح يقارن نفسه بالنبي، تبعاً لما يلي:

* الولي أفضل من النبي، وأبعد منه غوراً.

* ولاية النبي أفضل من نبوة النبي.

* الولي له الباطن أو الحقيقة وله التأويل، وليس للنبي إلا الظاهر الذي لا يتعدى القشرة التي حوت الحقيقة.

* النبي ومن أجل كسب الأتباع شوَّه رسالة ربه وكتم الحقيقة، أما الولي فلا مأرب له إلا الحقيقة حتى جعل من نفسه لسانها الناطق دون النبي.

* إن قال النبي لا نبي بعدي، قال الولي: لا انقطاع للنبوة طالما للنحل والنمل وحفظة الوجود وجود، أو طالما لا زوال لرحمة الله من الله، أو ما دام الله موجوداً.

وإن أصبح الولي ناطقاً بالمقام الأقصى في التصوف، أو بتوحيد لا موجود إلا الله، اتجه إلى النبوة بميزانه هذا، ليقول:

1 – لقد أخطأ النبي بما زعمه من توحيد لانعدام المقارنة بين البعض بالله على البعض الآخر.

2 – لا وجود للواسطة بين الله والإنسان لانعدام الفرق، وبالتالي فجبريل ورسالته ليس إلا فكرة من رأس النبي جسدها خياله في عالم الواقع، وما الملائكة بالتالي إلا أعمال بشرية قد تجسدت في الوجود.

3 – لا مفاضلة بين تشريع وتشريع، وبين عقيدة وعقيدة والكل إلى صواب مهما يكن المشرِّع، ومهما يكن الاعتقاد بتوحيد لا فاعل إلا الله، ولا فرق بين طاهر ونجس لأنه ما ثمَّ إلا الله.

4 – شرع النبي لم يكن إلا عما طلبه قومه من تشريع، ولا وجود لشيء اسمه شرع الله، طالما الله هو الكل الموجود، بما فيه من بشر وكواكب ومدر.

5 – العقائد التي زعمها النبي بما فيها من جنة ونار، وثواب وعقاب وإلى ما هنالك، لم تكن لديه على الحقيقة إلا لكسب الأتباع، وبهذا التلبيس على العوام والجهلة كانت كثرة أتباعه.

6 – وكما النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة ولا نبي بعده، كذلك للأولياء خاتم وكل من وصل لمقام وحدة الوجود فهو الخاتم للمقامات، وليس بعده من مرمى ولا مقام لأهل الله.

ويا لها من معركة امتد أوارها للموجود وما بعد الوجود، وإنها حقاً لرحلة ممتعة في جوار الأنبياء والأولياء، رغم ما فيها من عناء ومشقة وتعب.

- الخضر بين النبوة والولاية:

للنظر فيما تعنيه الولاية مقارنة بالنبوة عند المتصوفة بشكل عميق، نرى لزاماً استعراض قصة الخضر، طالما اعتبروه ولياً ذا حوار مع موسى النبي عليهما السلام، والمتأمل في بنية الفكر الصوفي ومبادئه سيجد الأولياء وكأنما يمثلون الخضر في الواقع العملي، فمن خلال المستفاد من قصته مثلاً، منعوا المريدين من الاعتراض على شيوخهم، ولو كانوا في ظاهر الأمر معارضين لأحكام الشريعة وأصول الاعتقاد، ومنها أيضاً كان تمييزهم بين العلم والمعرفة اللادنية، بين الظاهر والباطن، ومنها كان لهم إخضاع الظاهر الذي فيه كل الخطأ إلى الباطن الذي فيه كل الحق واليقين، ومنها كانت مزاعمهم لمقارنة النبوة بالولاية، حتى انتصروا للولاية التي زاحموا بها النبوة على مستويي المعرفة أو العقائد والمعجزات.

- الخضر نبي:

"قيل هو ولي، وقيل هو نبي، وقيل أنه من الملائكة، وقال ابن كثير: وأما كونه ملكاً من الملائكة فغريب جداً، وقال النووي: والصحيح أنه من البشر"[١]، وابن عربي يرى "مقامه برزخي بين الولاية والنبوة"[٢].

---

١ - ص٥٩ الخضر

٢ - ص٧٣ ج٢ مـ٤٣ اليواقيت والجواهر

وفي قوله تعالى: "فوجد عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما" يفسر ابن عباس رضي الله عنهما: "وعلمناه من لدنا علما" أي: "علماً من الغيب"، وقال ابن كثير: بأن هذا التفسير معناه القول بنبوة الخضر، لقوله تعالى: "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول"، فالخضر نبي مرسل إلى قومه، وهو أيضاً رأي إسماعيل بن أبي زياد ومحمد بن إسحاق وأبو حسن الرماني وابن الجوزي، أما الثعالبي، فقال: إن قلت برسالته أم لم تقل فهو نبي معمر ولا بد له من الموت.

و"الرحمة" الواردة في الآيات القرآنية تعني النبوة، والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وهو رأي الألوسي وابن كثير والنسفي ومقاتل وصاحب روح المعاني وغير هؤلاء كثير.

ومصطلح "الأمر" إسلامياً يعني النبوة أيضاً، والخضر يقول: "وما فعلته عن أمري" إنما فعلته عن أمر الله إياي به، والطبري يقول: ولما كانت النبوة مرتبطة بالأمر فالخضر واحد من الأنبياء، وما فعله إلا بأمر الله تعالى، وقال القرطبي: هو نبي عند الجمهور والآية تشهد بذلك، وبها استشهد النووي والمازري والنسفي والأصم على نبوة الخضر.

الأنبياء قد يتفاضلون، ولكن لا مفاضلة بين النبوة والولاية، فليس من ولي أفضل من النبي، ومحال أن يتعلم النبي من الولي، ولو لم يكن

الخضر نبياً، لما قال موسى "هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا"، فهو نبي مثله يوحى إليهما، وما قتله للغلام إلا بوحي وأمر إلهي، لا لإحساس بالإلهام، لأن الإلهام ليس بحجة ولا له التشريع أو التحليل والتحريم، فذلك لم يكن إلا عن وحي معصوم.

أما من ناحية المعجزات، ففيها من حيث المبدأ التساوي بينهما، فموسى يلتقي بالخضر عند إحياء الله لحوته، والخضر يقتل الغلام ويخرق السفينة بأمر وإعلام إلهي يعجز عنه البشر، لأن الغيب من علم الله "فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول"، ومعجزات الخضر تحديداً متعلقة بإعلام إلهي عن بعض الغيب.

والمتأمل في طبيعة هذا الرأي القائل بنبوة الخضر ورسالته، سيرى أنه مرتبط في دفع احتمال إباحة القول بأفضلية الولاية على النبوة، وبذلك يكون التلاؤم الأقرب مع طبيعة المبدأ النافي لأي مقام يساوي النبوة أو يتجاوزها.

ـ الخضر ميت:

ومن نتائج القول بنبوة الخضر ورسالته إلى قومه، القول بموته والذين رجحوا موته على حياته الأبدية جعلوا من الرسول صلى الله عليه وسلم معياراً في هذه المسألة، حيث يقول الله عز وجل: "أفإن مت فهم الخالدون"، وقوله أيضاً: "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد"، وإذا ما كان

الخضر بشراً، وهذا أكيد، فقد دخل في هذا العموم، وفي عموم قوله صلى الله عليه وسلم: "لا نبي بعدي"، والمعتمد الآخر لهذا الرأي قوله تعالى: "وإذا أخذ الله ميثاق النبيين... لتؤمنن به ولتنصرن"، وعندها سواء كان الخضر نبياً أو ولياً فهو مشمول بهذا الميثاق، ولم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم خبراً فيه نصرة الخضرة للرسول في دعوته أو غزواته، ولا ورد ذلك في نص من نصوص القرآن، والرسول حسب رواية الإمام أحمد في مسنده، يقول: والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني"، وإذا ما كان الخضر غير مشمول بمعنى هذا القول، فرسالته صلى الله عليه وسلم عندها لم تكن لجميع البشر، وهذا لم يقله أحد، لأنه أرسل إلى الثقلين عامة.

والذي في صحيح مسلم أن الرسول قد قال قبل موته: "ما من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية"، وقد سئل البخاري عن حياة الخضر وإلياس عليهما السلام: هل هما حيان؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته: "لا يبقى على رأس المئة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد"، فلو كان معمراً لجاء إلى الرسول وإلا لكان من الموتى بالقطع قبل موته صلى الله عليه وسلم إن كان نبياً.

لقد جاء ذكر الخضر في بعض الأحاديث، منها حديث التعزية المشهور والوارد في مسند الإمام الشافعي، حيث يقول: "لما توفي رسول

الله صلى الله عليه وسلم وجاءته التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن في الله عزاء من كل مصيبة. قال علي ابن الحسين: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر" أما الإمام أحمد بن حنبل فقد كذب بعض رواة هذا الحديث وجعله في زمرة المرسل. والنووي والعراقي ضعفا إسناده، والعراقي يقول: ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا عدم اجتماعه، ولا حياته ولا موته"، وكل المحدثين منهم السيد محمد بن السيد درويش والمناوي وابن حجر والسخاوي والذهبي، أنكروا أو ضعفوا ولم يستصوبوا ما وراه الحاكم والدارقطني وأحمد في حياة الياس وأنه اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وأكل معه. وحكاية رؤية الخضر متعلقاً بأستار الكعبة، وحديث التقاء الخضر والياس كل سنة، ليحلق كل منهما رأس صاحبه، أو اجتماعه مع إسرافيل وجبرائيل وميكائيل بعرفات والاحتجاج بها، يقول ابن قيم الجوزية: إن الأحاديث التي يذكر فيها الخضر عليه السلام وحياته، كلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد، ومن ادعى الصحة فعليه البيان.

فالأكثر من المحدثين قد أجمعوا على وفاة الخضر ورأوا أن الصحاح من الأحاديث تقطع دابر دعوى حياته، منهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبو الحسين بن المناوي والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي وابن حزم، ومحمد بن أبي الفضل المرسي، وعلي بن موسى الرضا، والقاضي

أبو يعلى، وأبو بكر بن العربي، وأبو يعلى بن الفراء، وأبو طاهر العبادي. وابن تيمية يرى أن الصواب هو أن الخضر مات، ثم أنه ليس للمسلمين حاجة إليه لأنهم أخذوا دينهم عن النبي وبه كفايتهم، ولو كان الخضر حياً لوجب عليه أن يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه، وقد قال صلى الله عليه وسلم يوم بدر: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض"، فأين كان الخضر وهذا الهلاك المحدق، وأهل بدر كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم. فأين كان الخضر يومئذ إن كان ممن أخذ عليه الميثاق لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.

والملحوظ بالنسبة لهذا الرأي القائل بموت الخضر أنه دفاع عن النبوة، لقوله تعالى: "وما أرسلناك إلا للناس كافة" وتلك هي نواة هذا الرأي التي يجب ألا ننساها عند الحديث عن استمرار النبوة عند أولياء التصوف.

- الخضر ولي:

المتصوفة أجمعوا على ولاية الخضر دون نبوته، وفسروا قوله "وما فعلته عن أمري"، باحتمال الإشارة إلى نبي من أنبياء ذلك الزمان هو الآمر للخضر، أو أن "ما" في هذه الآية موصولة وليست نافية، ليصبح المعنى "إن ما فعلته عن أمري"، أو بأن أمر معناها شأن، والمعنى حينئذ "والذي فعلته من شأني"[1] أو أمري.

وفي قوله تعالى: "وآتيناه رحمة من عندنا" قالوا: نسلِّم أن الرحمة معناها النبوة، ولكن لا يلزم أن كل نبوة رحمة، وفي قوله "وعلمناه من لدنا علما" قالوا: "والعلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله، وذلك لا يدل على النبوة".

وفي قوله: "وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا" وقول موسى: "لا أعصي لك أمرا"، قالوا: بجواز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها"[2].

ففعل الخضر برأيهم ليس عن أمر إلهي، وإنما عن نبي أمره بقتل الغلام وخرق السفينة وإلى ما هنالك، أو أن أمره من شأنه الذي تميَّز به، ومصطلح "الرحمة" في القرآن كما يرون ليس بالضرورة أن يشير إلى

---

[1] - ص٦٤ الخضر

[2] - ص٦٦ نفسه

النبوة، ولنفي ارتباط الغيب بالرسل، أو لنفي قوله تعالى: "وعلمناه من لدنا علما"، احتجوا بالمبادئ التي لا تبيح لمن يعرفها الزعم بالنبوة، وما علموا أن المبادئ ناطقة بالاقتطاع التجريبي، ولا علاقة لها بالخبر الذي يخص الغيب. أما قولهم باحتمال طاعة النبي إن كان له علم، فلا علاقة له بالنبوة، فهذا ممكن لولا أن الله وحد بين موسى والخضر وساوى بينهما في مصطلح العلم.

والمتأمل بهذه التأويلات سيراها متميزة بالتكلف، ناهيك عن معارضتها للمبادئ الأساسية للإسلام.

- الخضر والموت:

الخضر عند أهل التصوف "إمام الأولياء والسالكين، يلتقي به الشيوخ عياناً كما يزعمون، ويتلقون عنه الأسرار، فهو عندهم لم يمت، ولن يموت إلى آخر الزمان، وهو يقيم بالمسجد الأقصى، ويطوف بالأكوان، وهو يحضر في كل مكان يُذكر فيه اسمه، ولذلك يلقي الصوفية عند ذكره السلام"[١]، فالخضر حي، وهذا "متفق عليه عند الصوفية، وقالوا: أنه لا دليل على موته، ولا نص فيه من كتاب ولا سنة ولا إجماع"[٢].

---

[١] - ص٤٣ الصوفية في نظر الإسلام

[٢] - ص١٨٦ الخضر

وعندما خشي بعضهم من حجة وجوب إسلام الخضر ومجيئه إلى الرسول، وحتى لا يتعارضوا مع شمول القرآن القائل: "أفإن مت فهم الخالدون؟"، وقوله تعالى: "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد"، قالوا: أنه ما زال حياً ولكنه سيموت وفق رأي الثعالبي في آخر الزمان، بعد قتاله للدجال، أو في زمان رفع القرآن وفق رأي عمرو بن دينار، حيث سيموت الخضر وإلياس. أما ابن عربي فقد جعل الأحياء أربعة هم: إدريس وإلياس وعيسى والخضر عليهم السلام، وقال: "القطب من هؤلاء لا يموت أبداً، أي لا يُصعق، وعندما لم يجد المتصوفة كما يقول الألوسي سنداً صحيحاً للبرهان على لقاء الخضر بالرسول، قال بعضهم: ونختار أنه أتى وبايع ولكن باطناً، حيث لا يشعر به أحد، والسهروردي في "السر المكتوم"، قال: بأن الخضر عليه السلام حدثنا بثلاثمائة حديث سمعها من النبي صلى الله عليه وسلم، والرفاعي يقول: أن أبا العباس الخضر عليه السلام، حي مرزوق في الدنيا يُسمع منه مشاهدة ويُرى وهو من أهل التكليف بالشرع المحمدي"، والشيخ بشر الحافي جاء مرة إلى بيته المقفل، وإذ برجل يصلي فيه، وكان الخضر ذلك الرجل"[١]، والشيخ ابن قضيب البان في معرض حديثه عن إسرائه الذي وصل به إلى الجنة، يقول: أن في الجنة "عين ماء اسمها "الولاية"، وفيها رأيت الخضر،

---

[١] - ص٧٣ ج١ الطبقات الكبرى

فقال: لا أزال أتردد إلى هذا المكان في كل اسبوع مرة"[1]. وهل بعد العيان من برهان على حياة الخضر وولايته؟!

الخضر كما يعتقدون حي، ولكن ما سبب بقاءه حياً دون سائر الناس؟ لقد "ذكروا لذلك سببين:

1 – قيل: لأنه دفن آدم عليه السلام بعد الطوفان، فنالته دعوة آدم بطول الحياة.

2 – وقيل: لأنه شرب من عين الحياة فحيي"[2]، وابن عربي يقول: لقد كان الخضر "في جيش فبعثه أمير الجيش يرتاد لهم ماء، وكانوا قد فقدوا الماء، فوقع بعين الحياة فشرب منه فعاش إلى الآن، وكان لا يعرف ما خص الله به من الحياة شارب ذلك الماء"[3]، "ثم عاد إلى أصحابه، فأخبرهم بالماء فسارع الناس إلى ذلك الموضع ليستقوا منه، فأخذ الله بأبصارهم عنه، فلم يقدروا عليه"[4]، أما الشيخ عبد الكريم الجيلاني وبعد اعتقاده بأن الاسكندر المقدوني هو الاسكندر المذكور في القرآن، وبعد أن جعل عين الحياة مظهراً للحقيقة الذاتية، قال: لقد "سافر الاسكندر ليشرب من هذا الماء، "ماء الحياة" اعتماداً على كلام أفلاطون أن من شرب من

---

[1] - ص٢١٨ الإنسان الكامل في الإسلام
[2] - ص١٩٢ الخضر
[3] - ص٣٣٦ ج٣ بـ٣٦٦ الفتوحات المكية
[4] - ص٣٣٧ نفسه

ماء الحياة فإنه لا يموت، لأن أفلاطون كان قد بلغ هذا المحل وشرب من هذا البحر، فهو باق إلى يومنا هذا في جبل يسمى دراوندر، وكان أرسطو قد صحب الاسكندر، وكان في جملة من صحب الاسكندر من عسكره الخضر عليه السلام، وكان الخضر عليه السلام قد ألهم بأن أخذ طيراً فذبحه وربطه على ساقه، فكان يمشي ورجله في الماء، فلما بلغ هذا المحل، انتعش الطير واضطرب عليه، فأقام عنده وشرب ذلك الماء واغتسل منه وسبح فيه فكتمه عن الاسكندر وكتم أمره"[١].

المتصوفة لم يختلفوا رغم الكشف وعلومهم اللدنية في أسباب خلوده فحسب، بل واختلفوا أيضاً في معرفتهم لاسمه، فهو عندهم: بليان أو إيليا أو المعمر إرميا أو خضرون أو بليا أو عامر أو إليسع أو إلياس، واختلفوا كذلك في اسم أبيه، فقيل: هو "ملكان، كليان، عييل، قابل، فرعون، ابن بنت فرعون، طيفاء، مالك، ابن آدم لصلبه، ابن نوح". والألوسي يقول: ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال.

---

[١] - ص٧٢ ج٢ بـ٦٢ الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر

- رؤية الخضر:

الخضر بإجماع أهل التصوف حي، ولا أكثر من مزاعمهم بالالتقاء معه، فالشيخ أبو سعيد القلوري "كان الخضر عليه السلام يأتيه كثيراً"[١]، وكان يأتي إلى بلال الخواص وعبد القادر الجيلاني وأبو مدين بن شعيب المغربي وبشر الحافي وصياد اليمن والجنيد وعبد الله القرشي وابراهيم المتبولي والشيخ عبد الرزاق والمظفر الجصاص ونصر الخراط وأبو عبد الله الأشحر وأحمد القصيري وأحمد اليمني وأحمد بن محمد كسبة والشيخ أبو الفدا وما أكثر الزاعمون إلى اللقاء معه، والشيخ علي النبتيني الضرير كما يقول الشعراني: "كان يجتمع بالخضر عليه السلام وذلك أول دليل على ولايته، فإن الخضر لا يجتمع إلا بمن حقَّت له قدم الولاية المحمدية"[٢]، والخضر يقول على ذمة الشيخ عبد الكريم الجيلاني: أنا بغية الطلاب، لا يصل إليَّ ولا يدخل عليَّ إلا الإنسان الكامل والروح الواصل، وأما من عداه فمكانتي فوق مأواه لا يعرف لي خبراً ولا يرى لي أثراً، بل يتصور له الاعتقاد في بعض صور العباد، فيتسمى باسمي ويكتب على خده وسمي، فينظر إليه الجاهل الغر، فيظن أنه المسمى بالخضر، وأين

---

[١] - ص١٤٧ ج١ الطبقات الكبرى
[٢] - ص١٢٤ ج٢ نفسه

هو مني، بل أين كأسه من دني؟ اللهم إلا أن يقال أنه نقطة من بحري أو ساعة من دهري"[1].

فالخضر لا يجتمع إلا بالأولياء الكمل، أما الخضر المزيف فيجتمع بغيرهم من الجهال، وللخضر الحقيقي وسم على خده وبه يُعرف عن غيره، وله علامات عند أهل الله، ولكنها بعدد القائلين بها، ومنها اخضرار الأرض تحت قدميه، وأن طول قدمه ذراع، وربما يظهر منه بعض خوارق العادات، لتشهد بصدق دعواه إن زعمها، ومن علاماته أن إبهام يده اليمنى أعظم ما فيها، وأن بؤبؤ عينه يتحرك باستمرار كالزئبق، وأن ثيابه خضراء لا تبلى وعمامته صفراء، حسن الوجه، قامته طويلة، طيب الرائحة، أشهب اللحية، جسيماً، صبيحاً، أبيض الرأس واللحية، طويل شعر المنكبين، طعامه هو وإلياس الكرفس والكمأة، مضرب المثل في العلم، هادئ النفس، يضرب به المثل في السياحة، والشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: أنا لقيته وسبابته ووسطاه سواء"[2] في الطول. وهذه الصفات واضحة وضوح الشمس ولا بد لمن رآه أن يتعرف عليه، إلا أن أغلب الرآئين له من المتصوفة لم يعرفوه، ولو كان لهذه الصفات من معنى موضوعي لما جهله الأولياء إلا إن كانوا جهلة أو إن كان ما يرونه هو الخضر المزيف لا الخضر الحقيقي كما يقول الجيلاني، ولابن عربي

---

[1] - ص٢٨ ج٢ بـ٥٧ الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر

[2] - ص٨١ لطائف المنن

قصة في هذا الشأن، فقد رأى الشيخ أبو العباس العربي الرسول صلى الله عليه وسلم في نومه، فأشار له إلى ولاية أحد المتصوفة، وعندما أنكر ابن عربي ما زعمه أبو العباس، رأى في طريقه رجلاً نبأه بصحة ما قاله الشيخ، ولما عاد ابن عربي إلى أبو العباس، قال له أبو العباس معاتباً: "يا أبا عبد الله أحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك يقول لك صدِّق فلاناً"[1]. فكيف لم يعرفه ابن عربي وهو الكامل والشيخ الأكبر؟ ومرة أخرى يلتقي به في البحر، وبعدها قال: "فلما جئت المدينة لقيت رجلاً صالحاً فقال لي: كيف كانت ليلتك البارحة في المركب مع الخضر؟"[2] فقد رآه وتحدث معه وما عرفه!! والشيخ "بلال الخواص" يقول: كنت في تيه بني اسرائيل فإذا رجل يماشيني فتعجبت منه ثم ألهمتُ أنه الخضر عليه السلام، فقلت له بحق الحق من أنت؟ فقال: أخوك الخضر. فقلت له: أريد أن أسألك، فقال: سل. فقلت: فما تقول في بشر بن الحرث الحافي؟ فقال: لم يُخلق بعده مثله"[3].

فالرجل لم يعرفه، فلا رأى العلامة على خده وعينيه وثيابه وأصابعه، ولا اخضرت الأرض تحت قدميه وإلى ما هنالك، وكل ما في

---

[1] - ص١٨٦ ج١ بـ٢٥ الفتوحات المكية
[2] - ص١٨٦ نفسه
[3] - ص١١ الرسالة القشيرية

الأمر أنه صدَّقه فيما زعمه له، وربما أنه اختلق هذه القصة لتزكية الحافي ليس إلا.

الشيخ ابراهيم الخواص، رأى الخضر في البادية على فرس شهباء فما عرفه إلا عندما قال له: فقل – أي للرسول – أخوك يقرأ عليك السلام"[1]، وبشر الحافي عندما رأى الخضر في بيته ولم يعرفه قال: "فقلت له: كيف دخلت داري بغير إذني؟ فقال: أنا أخوك الخضر"، والشيخ مصطفى يسأل شيخه عبد الفتاح أفندي أن يريه الخضر "فقال له: يا شيخ مصطفى! أما مرَّ الخضر عليك في اليوم الفلاني بالصفة الفلانية، وكلمك بكذا وكذا ولم تلتفت إليه؟ فماذا أصنع لك أنا"، والشيخ أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي "يقول: رأيت رجلاً بالبادية فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا الخضر الموكل بالأولياء"، والشيخ أبو بكر الهمداني يرى بدوياً في الصحراء، فقال: "قلت بحق الذي بعثك إليَّ إلا ما قلت لي من أنت؟ فقال: الخضر، وغاب عني فلم أره"، والشيخ رستم خليفة يقول عندما رأى أحد الشباب فسأل "قلت من هذا الشاب؟ فقيل له: هو رجل مشهور، فعلمت أنه الخضر عليه السلام"، ورى البطائحي قائلاً: رأيت الشيخ أبا البيان والشيخ رسلان مجتمعين وإذا بشخص قد أتى وكأنه طائر في الهواء، فجلس بين يديه كالمريدين، فكانا يخاطبانه: يا أبا العباس!

---

[1] - ص٩٨ ج١ الطبقات الكبرى

فعلمت أنه الخضر، وعبد الله بن المبارك يرى الخضر الذي أحيا فرسه الميت ولم يعرفه، يقول: "فقلت: سألتك بالله تعالى من أنت؟ فوثب قائماً فاهتزت الأرض تحته خضراء، فقال: أنا الخضر"، والشيخ خسرو اكتفى بخبر شيخه الذي قال له: "هذا الخضر"، والشيخ أحمد بن حسن المعلم طلب من ربه أن يريه الخضر "فجاءه بدوي وتأنس به، ولما غاب عنه وطار، عبقت الرائحة في النار، فعرف أنه الخضر، ولما اجتمع بشيخه عبد الرحمن السقاف وأخبره بتلك الأوصاف قال له: هو الخضر"، وحسب رواية البيهقي حضر الخضر بين قوم لينهاهم عن الحلف بالله، وعندما طلبوه لم يروه "وكانوا لذلك يرون أنه الخضر"، وجعفر بن محمد يرى الخضر يحدث قوماً، فقال له أبوه: رده علي، قال: فتتطلبته فلم أقدر عليه، فقال إليَّ أبي: ذاك الخضر"، وعندما جاء رجل ليغسِّل أبو بكر اليعفوري الميت، "قال الخبيرون من الحاضرين: هو أبو العباس الخضر عليه السلام"، واليافعي يقول: "لقد أخبروني – أي أولياء الصوفية – أنه اجتمع بي وسألني عن شيء فأجبته ولم أعرفه، لأنه لا يعرفه إلا صاحب نور"، وعندما زعم القاضي ابن دقيق العبد رؤية شيخه للخضر "قيل له: من أعلمه أنه الخضر؟ ومن أين عرف ذلك؟ فسكت!".

وبالإجمال فالصوفي يصدق كل رجل يزعم له أنه الخضر، سواء أقسم على ذلك أم لم يقسم، وإذا ما شم رائحة طيبة من رجل، أو إن

استأنس به فهو الخضر، وإن قال له أن ذلك الذي التقيت به هو الخضر فله الصدق الأكيد، والحريصون منهم جعلوا حضوره مرافقاً للخوارق، فالرجل السريع الاختفاء هو الخضر، وكل من هبط من السماء ولو عن شجرة فهو الخضر، وكل رجل أنقذ الصوفي من الهلاك فهو الخضر خاصة إن كانت فرسه شهباء اللون أو إن كان مرتدياً للثياب الخضراء والطاقية الصفراء. وإذا ما كان لنا التعميم بأن كل من لم يعرفه منهم فلا نور له، عندها فظهوره غير قاصر على الأولياء، ولا يرون حينئذ إلا الخضر المزيف، طالما أن مزاعمهم هذه لا يقين فيها، ولا يقين في اجتماعهم على صفاته الموضوعية، ولو كان مميزاً باخضرار الأرض تحت قدميه أو بتراقص عينيه أو بتساوي إصبعيه أو بوجود علامة على خده، لما أخطأ به أحد منهم على الإطلاق، ولكن كل واحد منهم رآه حسبما تهيئ له من الظنون، والظنون في نهاية المطاف لا قدرة لها برهانية على حياة الخضر أو اللقاء به إلا من خلال المنهج الخرافي منهج المزاعم المعصومة غير الخاضعة للصدق أو الكذب "فيا لله تعالى العجب!! هل للخضر علامة يعرفها من رآه، فمن أين للرآئي أن المخبر له صادق لا يكذب"[1]. أما إن سألت الوسطاء الروحيون في مسألة خضر المتصوفة لرأيتهم قائلين: أن ما يرونه ليس إلا روحاً "قد ادعى أو تخيل

[1] - ص١٩٩ الخضر

للرأئي نفسه أن هذا الروح هو الخضر"[1]، فالأرواح الشريرة حسب مصطلح الروحيون تعبث بهؤلاء القوم فيزعمون أنهم الخضر استهزاءاً بهم. ولما كانت هذه الأرواح بالمصطلح الديني تعني من بعض الوجوه الجن والشياطين نرى ابن تيمية يقول: إن "الذين رأوا من قال: إني أنا الخضر هم كثيرون، لكن أخطأوا في ظنهم أنه الخضر وإنما كان جنياً"[2] بل إن ابراهيم الحربي يقول: وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان"[3]، وبوجود الجن في هذه المسألة يكون هباء اقتران أخبارهم بالخوارق، لأن الخوارق خوارق بالنسبة لنا، أما بالنسبة للجن فلهم فعل ذلك أو أشباهه بفعل التخييل وإلى ما هنالك.

ـ الخضر مقام أو روح:

ولما كان عدم يقين المتصوفة في إدراكهم للخضر، رأينا بعضهم وقد أصبح يتحلل من هذا المعنى الوجودي، فقد "ذهب الشيخ عبد الرزاق الطاشي" إلى أن الخضر "عبارة عن البسط، وإلياس عن القبض، وذهب بعضهم إلى أن الخضر رتبة يتولاها بعض الصالحين"[4]، "وكان الشيخ علي بن وفا يقول: الخضر مظهر عرفاني، والشيخ علي ولده يقول: لكل ولي خضر، وهو تمثُّلُ روح ولايته، كما لكل نبي صورة جبريل هي تمثل

---

[1] ـ ص٥٢٨ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[2] ـ ص٧٢ ج١ مجموعة الرسائل الكبرى. رسالة الفرقان
[3] ـ ص٢١٠، ٢٤٢ الخضر
[4] ـ ص٢٢٦ الخضر

روح نبوته يظهر لحسه من فوق نفسه"[1]، فالخضر مقام من مقامات الطريق العرفاني، أو هو رمز لمقام البسط، أو هو روح ولاية الصوفي التي تتجسد له في الخارج كتجسد جبريل الذي يمثل روح النبوة عند الأنبياء. وهروباً من الوجود الموضوعي للخضر ولاستحالة إدراكه بنفس المميزات عند الجميع، قالوا أيضاً بأن الخضر روح ليس إلا "وتشكل الروحانيين – كما يقول ابن عربي – غير منكور عندنا، وهكذا رجع الخضر عليه السلام ليتشكل على أي صورة أحب أن يُرى فيها وهي على قدر مقامك، فالملكة التي أعطيت إنما هو فعل يشخصه لك في ذاتك وهو على صورته التي خلقه الله عليها"[2]، فكما يكون مقامك كما يقول الشيخ الأكبر، يكون ظهوره لك، وبذلك تكون نسبته ذاتية بالرائي ومقامه، وعندها لا معنى للقول بحياته طالما شأنه في ذلك شأن الأرواح بشرية كانت أو جنية، وهكذا يكون فشلهم في استخدام الإدراك أو الإدراك الكشفي بالتحديد برهاناً على حياة الخضر، إلا إن سلمنا بعصمة الأخبار المتناقضة دونما تمييز.

---

[1] - ص٣١ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص٦١ مواقع النجوم

ـ أغراض الصوفي من قوله بحياة الخضر:

إن لعقيدة أهل التصوف بحياة الخضر أغراضاً كثيرة، فالخضر يأتي بالطعام إلى الشيخ أبو بكر الهمداني لما أشرف على الهلاك، ورشَّ الماء على وجه الخواص وسقاه عندما غشي عليه من شدة العطش"[١]، وبينما حرَّم الشيخ ابراهيم بن أدهم على نفسه السكباج ثلاثين سنة، أتاه الخضر به وأطعمه بيديه وهو نائم، ولما استيقظ وجد حلاوة الطعام في فمه"[٢].

أما الشيخ عبد الله القرشي "كان رضي الله عنه كثيراً ما يجتمع بالخضر عليه السلام، وكان يطبخ طعام القمح كثيراً، فقيل له في ذلك، فقال رضي الله عنه: إن الخضر عليه السلام زارني ليلة فقال: اطبخ لي شوربة قمح، فلم أزل أحبها لمحبة الخضر عليه السلام لها"[٣]. فالخضر يأتي إلى الأولياء ليأكل الشوربة المحبوبة إلى قلبه، وتلك بعض سماته، وهل أعظم من ذلك برهاناً على حياته؟ فلو كان روحاً كالملائكة التي أتت ابراهيم عليه السلام لما كان له حب الشوربة، إلا أن الشيخ أبو يزيد البسطامي أنف أن يأتيه الخضر بالطعام لأنه لا يرضاه إلا من الله نفسه، وقد "قال أبو الحسن النوري: دخلنا على أبي يزيد البسطامي فوجدنا لديه

---

١ ـ ص١٧٢ الرسالة القشيرية
٢ ـ ص٩٣ ج٣ إحياء علوم الدين
٣ ـ ص١٥٩ ج١ الطبقات الكبرى

رطباً فقال: كلوه، فإنه هدية الخضر جاء بها من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا ما طلبتها إلا من الله تعالى، ما طلبتها بواسطة الخضر، آكلها على يدي الخضر!! ثم دخلنا عليه في الجمعة الثانية، فوجدنا بين يديه رطباً في طبق ذهب أحمر، فقلنا ما تطعمنا منه؟ فقال: لا، هي لي ولا لكم، فقلنا: كيف حديثها؟ فقال: كنت قاعداً بالليل أتلو القرآن فسمعت: خذ الهدية منا لا واسط بيننا"[١]. فإذا لم يكن من واسطة بين الله وبينه، فما حاجته إلى طعام يأتي به الخضر من الرسول صلى الله عليه وسلم؟

- الخضر للشفاء:

الخضر يوصي الحرار بخدمة الأولياء والتواضع لهم، ولما أبرَّ بوصيته وعندما مرضت رقبته من كثرة الخضوع أتاه الخضر وفي يده زبدية فيها عسل نحل والحرف يعني حب الرشاد، وقال لي: اشرب، من يخدم أولياء الله ما يصيبه سوء، فشربتها فعادت رقبتي أصح مما كانت"[٢]، وعندما مرض ابن السماك أرسل إليه دعاء من القرآن فشفاه من مرضه، ونفس الدعاء علمه للشيخ أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري، حال مرضه، وكذلك علم المعوذات للشيخ رستم البرسوسي، ليشفيه من مرض ألمَّ بعينيه.

---

[١] - ص٨٢ سر العالمين

[٢] - ص٢٩ سير الأولياء

أما الشيخ القرشي، ولا أدري إن كان سئماً من أدوية الخضر أو شكاً فيه أو وصولاً إلى مقام لم يعد به حاجة إليه، نراه يطرد الخضر وما جاء به من الدواء، فقد دخلت عليه زوجه وهو في الخلوة "فقالت: يا سيدي سمعت عندك حس رجل والباب مغلق، قال: هو الخضر دخل عليَّ وفي يده حبة، قال: هذه جئتك بها من أرض نجد وبها شفاء مرضك، قلت: لا أريد، اذهب أنت وحبتك لا حاجة لي بها"[1].

- الخضر لجمع شمل أهل الله:

الخضر وسيلة هامة من وسائل الفكر الصوفي لتزكية المشايخ ودعم أصول التصوف، فقد ظهر لابن عربي ينصحه بالتسليم للأولياء، وفي ذلك يقول: "لقيته بأشبيلية وأفادني التسليم للشيوخ وأن لا انازعهم"[2]، وكذلك أوصى الحرار بالطاعة والخدمة كما رأينا، وعندما رآه أبو مدين أخبره بـأن الشيخ عبد القادر الجيلاني إمام الصديقين"[3]، كما أرسل تحياته وسلامه مع الشيخ أحمد النوباني، إلى الشيخ نور الدين اليشرطي الشاذلي، ولم ينسَ المتصوفة أن جعلوه مرسلاً للتحيات إلى الإمام أحمد بن حنبل، بل وانتصر للجيلاني وزكاه حيث أمر عثمان "الصرفيني" ملازمته لأنه برأيه "يد العارفين في عصره، فعليك بملازمته، ومرة هبط من السماء

[1] - ص٥١ سير الأولياء، ص٨٢ لطائف المنن
[2] - ص٣٣٦ ج٣ بـ٣٦٦ الفتوحات المكية
[3] - ص١٥٤ ج١ الطبقات الكبرى

كما روى القشيري ليشهد بصدق أحد المشايخ على الشيخ الآخر"[1]، وذات مرة أمر الشيخ أبو سعيد المخزومي عن طريق التخاطر عبد القادر الجيلاني بالمجيء إليه، ولكن الجيلاني رفض ثم قال: "فسمعت صارخاً من باطني يناديني -. فقلت في نفسي ما أخرج من هذا إلا بأمر، فجاءني أبو العباس الخضر، وقال: ثم وانطلق إلى أبي سعيد المخزومي، فجئته فإذا هو واقف على باب داره وينتظرني، فقال: يا عبد القادر! ألم يكفك، قولي لك تعال؟ حتى أمرك الخضر"[2]. فما أشد حرص الخضر على جمع شمل القوم وإحقاق الحق بينهم.

- الخضر يعطي الخرقة للأولياء:

الخضر يعطي الخرقة لمشايخ التصوف، وابن عربي يقول: "واجتمع به رجل من شيوخنا وهو علي بن عبد الله بن جامع من أصحاب المتوكل، وأبي عبد الله قضيب البان- وكان الخضر قد ألبسه الخرقة بحضور قضيب البان، وألبسنيها الشيخ بالموضع الذي ألبسه فيه الخرقة- وقد كنت لبست خرقة الخضر بطريق أبعد من هذا، ومن يد صاحبنا تقي الدين- ولبسها هو من يد صدر الدين- وكان جده قد لبسها من يد

[1] - ص١٧٢ الرسالة القشيرية

[2] - ص٤٥٨ قلادة الجواهر

الخضر. ومن ذلك الوقت قلت بلباس الخرقة، وألبستها الناس لما رأيت الخضر قد اعتبرها، وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن"[1].

فالخضر يكرس الخرقة في أصول الطريق الصوفي، والشيخ أحمد الرفاعي أتاه الخضر فقال له: يا أبا الصفا، قد جاءت لك من جانب الحق خرفة وتاج فاقبلهما"[2]. والحمد لله أن قبلهما، إلا أن الشيخ ابن عربي له خرقتان لا واحدة!

- الخضر يقرر أصول الطريق:

من المعلوم أن التقية من أصول المنهج الصوفي، والخضر كما يروون من أوائل الذين نصحوا المشايخ باعتقادها، فقد مرَّ الخضر على الحلاج وهو مصلوب "فقال له الحلاج: هذا جزاء أولياء الله؟! فقال الخضر: نحن كتمنا فسلمنا، وأنت بحت فمت يا حلاج"[3]، فإذا كانت نجاة الخضر بالتقية فكيف لا يأخذ المتصوفة بها، ومن حقهم عندها كتم أسرارهم عن الناس، وأن يظهروا لهم ما ليس في باطنهم وإلا هلكوا.

ولما كان الخراب بمعنى الرياضات من أصول المنهج الصوفي، نرى أن المتصوفة قد سخَّروا الخضر لتقرير وترسيخ هذه المسألة، وقد روى أن أحدهم رأى الخضر عليه السلام فقال له: "يا أبا العباس علمني

---

[1] - ص١٨٧ ج١ بـ٢٥ الفتوحات المكية
[2] - ص٤٣٣ – ٤٣٤ قلادة الجواهر
[3] - ص١٤٧ الفيلسوف الغزالي، هامش

شيئاً إذا قلته حجبت عني قلوب الخليقة. "حتى صار بحيث كان يستذل ويمتهن حتى كان أهل الذمة يسخرون به وكان الصبيان يلعبون به"[1].

ولما كان السماع من أصول القوم أيضاً، رأينا الخضر وقد أباحه لأحد أولياء الغزالي في إحياءه، وكذلك نراه وقد هبَّ مدافعاً عن خوارق المتصوفة، فعندما كان ابن عربي ذات مرة واقفاً مع أحد منكري الكرامات، وإذ بالخضر "قد أخذ حصيراً صغيراً كان في محراب المسجد، فبسطه على الهواء على قدر سبعة أذرع من الأرض، ووقف على الحصير في الهواء يتنقل، فقلت لصاحبي: أن تنظر إلى هذا وما فعل، فقال لي: سر إليه وسله، فتركت صاحبي واقفاً وجئت إليه.- فرددت وجهي إلى المنكر وقلت له: ما تقول؟ فقال: ما بعد العين ما يقال"[2].

ـ الخضر مصدر عرفاني:

الخضر كما قال للنخشبي موكل بقلوب الأولياء إذا شردت عن الله عز وجل"[3]، فقد منع الشيخ عبد القادر الجيلاني من دخول بغداد سبع سنين ودون أن يتذمر الجيلاني"[4] أو يخالفه، كما تذمر موسى حتى خالفه. وقد علَّم الدعاء لبشر الخافي وغيره من أولياء الأحياء، وعلم الشيخ ابراهيم التيمي بعض الأوراد التي أخذها عن الرسول صلى الله عليه

[1] ـ ص٣٥٧ ج٤ إحياء علوم الدين
[2] ـ ص١٨٦ ج١ بـ٢٥ الفتوحات المكية
[3] ـ ص٨٣ ج١ الطبقات الكبرى
[4] ـ ص١٢٩ ج١ نفسه

وسلم"[1]، "فالمشايخ أيضاً يجتمعون بالخضر أو يأتي إليهم فيسألوه عن جغرافيا الأرض حتى قال أنه لم ير مثل دمشق"[2]، وعندما أراد الترمذي حسب رواية العطار في التذكرة، السفر مع صديقة طلباً للعلم، احتجت عليه والدته ومنعته، "فبينما كان في إحدى المقابر. إذ به يرى أمامه شيخاً مشرق الوجه، فسأله الشيخ عن سر بكاءه، فأفضى إليه الفتى بحاله، فقال له الشيخ: ألا أعلمك في كل يوم شيئاً من العلم؟ فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك؟ فأجابه الفتى إلى ذلك. ومضت على ذلك أعوام ثم عرف الترمذي بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام"[3].

والخضر برأي ابن عربي، واحد من أوتاد الصوفية"[4]، ومن مهامه العرفانية أيضاً، إعلام الأولياء بمتى موتهم، فالشيخ شمس الدين الديروطي "لما حضرته الوفاة أخبر والدته أنه يموت في تلك الرقدة، فقالت له: من أين لك علم هذا؟ فقال: أخبرني بذلك الخضر عليه السلام، فكان كما قال"[5]، بل ويأتي لتغسيل الصوفي إن مات، وقد غسل وألحد كما يزعم المتصوفة مثلاً الشيخ أبو بكر اليعفوري وكثيرون سواه.

---

[1] - ص٣٣٦ – ٣٣٧ ج١ إحياء علوم الدين
[2] - ص٣٢٦ الخضر
[3] - ص٤٠٩ المعقول واللامعقول
[4] - ص١٨٦ ج١ بـ٢٥ الفتوحات المكية
[5] - ص١٨٣ ج٢ الطبقات الكبرى

- الصوفي أعظم من الخضر:

الأولياء قد يتفاضلون والخضر ليس أفضل الأولياء، فالصوفي الذي أفرد القصد إلى الله، سيرى أن الخضر من جملة القواطع التي تعترض سبيله في رقي مقامه، فالشيخ ابراهيم بن اسماعيل الخواص "كان يقول: لقيت الخضر عليه السلام في بادية، فسألني الصحبة، فخشيت أن يُفسد عليَّ توكلي بالسكون إليه ففارقته"[١]. ولكن إن كان الخضر الذي هو واحداً من الأولياء قد فارق موسى الذي هو من الأنبياء، فأي مسافة بين الأنبياء وبين من هو أعظم من الخضر نفسه؟! "قيل لبعض العارفين – كما يروي الغزالي – قيل له: بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام؟ فتبسَّم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه!!"[٢]، والقرشي كما مرَّ معنا طرد الخضر ورده بزيتونته التي أتاه بها ليداويه من الجذام"[٣]، والشيخ خسرو يفتخر بأنه رأى الخضر ولم يجد في نفسه ميلاً إليه لا ظاهراً ولا باطناً"[٤]، والشيخ أبو سعيد القليوري يقسم أنه رأى الخضر كثيراً وقد حضر إلى مجلس الشيخ عبد القادر الجيلاني طلباً للنصح والفلاح ومزيداً من المعرفة، والشيخ شمس الدين الحنفي كما يروي الشعراني "كان الخضر عليه السلام يحضر

---

[١] - ص٩٧ ج١ الطبقات الكبرى، ص٧٧، ٥١ الرسالة القشيرية
[٢] - ص٣٥٥ ج٤ إحياء علوم الدين
[٣] - ص٨٢ لطائف المنن
[٤] - ص٣٢٣ الخضر

مجلسه مراراً، فيجلس على يمينه فإن قام الشيخ قام معه وإن دخل الخلوة شيَّعه إلى باب الخلوة"[1]، وتلك سنة المريدين، بل إن المريدين المتصوفة لا يأبهون بالخضر، فالشيخ "أبو السعود الشبلي" كان في مدرسة الشيخ "عبد القادر الجيلاني"، "يكنِّس فيها، فوقف الخضر على رأسه فقال: السلام عليكم، فرفع أبو السعود رأسه قال: وعليك السلام، ثم عاد إلى شغله. فقال له الخضر: فما بالك لم تنتبه لي؟ فقال له أبو السعود: مشغول بخدمتي، والتفت إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وقال: لم يترك مني هذا الشيخ فضلة لغيره"[2] وهل للعاقل إلى الأفضل؟ والجيلاني برأيه أفضل من الخضر وقد أُقره على ذلك الخضر والجيلاني بسكوتهما، ولكنها على ما يبدو حكاية ترمي لإعلاء شأن المذِّل نفسه للمشايخ.

وختاماً نرى أن أغراضهم من قولهم بحياة الخضر وولايته، هي ما يلي:

* "أن يثبتوا أن الولي أعلم من النبي"[3]، أو ليقولوا بأفضلية الكشف والتجلي على الوحي، أو لتفضيل الولاية على النبوة.

* ليجعلوا الخضر مصدراً من مصادرهم المعرفية.

[1] - ص١٠٠ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص٨١ لطائف المنن
[3] - ص٢١ التصوف بين الحق والخلق

* لتسخيره كوسيلة تخدم هذا الولي أو ذاك في صراعه مع الأولياء الآخرين، كما استخدموه أيضاً في أغراض الدعاية والتزكية وتشجيع المريدين على السخاء في الإنفاق والتفاني في الخدمة. ليكفوا لسان المريدين عن نقد المشايخ المعصومين أصحاب العلم الباطن.

* ليكفوا الفقهاء عن أحكامهم الشرعية، لأن الأحكام مختلفة ما بين الظاهر والباطن، حيث لا حكم للظاهر على الباطن.

* ليقرروا أصول منهجهم كالسماع والخرقة والتخريب النفسي وإلى ما هنالك.

وأخيراً أصبح الخضر سداً منيعاً أمام المعرفة العلمية وعلى رأسها الطب لكل من آمن بحياته الدائمة.

- الفلاسفة والنبوة:

ولما كان الفيلسوف يبحث عن الجذور في كل ما له علاقة بالتفسير، ولما كانت أصوله لا بد أن تنتمي إلى تجربته أو تجربة عصره، لذا نراه وقد قام محاولاً تفسير النبوة بما يملك من ثقافة، وفلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا ومن لف لفهم، قد ورثوا أصول نظريتهم في المعرفة عن فلاسفة تلك البيئة، حتى لم يروا في النبوة إلا أصولهم، ولذلك "ادعوا أن النبوة لها خصائص أو قوى ثلاثة:

1 – أن يكون للنبي قوة علمية يسمونها القوة القدسية، ينال بها العلم بلا تعلم.

2 – أن يكون له قوة تخلية، تخيل له ما يعقل في نفسه"[1] لتجسيد ما يتخيل.

3 – أن يكون له قوة يؤثر بها في هيولى العالم"[2] لإحداث المعجزات. وطالما تحصيل هذه القوى متاح لكل إنسان إن اتبع الرياضات العقلية أو البدنية، فله بالنتيجة كسب النبوة، ولا حد لاكتسابها بنبي من الأنبياء أو غير ذلك.

---

[1] - ص١٢٧ ج١ نظرية المعرفة الإشراقية

[2] - ص١٢٨ نفسه، ص٥٣ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

- النبوة والولاية في الفكر الصوفي:

الصوفي كما قيل يعاني من "عقدة حسد النبوة"[1]، والنبي كما يقول أصحاب الرياضات إن انصرفت إليه بهمك فهو من جملة القواطع التي تعيق السالك في إفراد القصد إلى الله تعالى، حتى أن الشيخ أبو سعيد القلوري عرَّف التصوف "بالتبري مما دون الحق"[2]، وكأن الرسول ليس من الخلق أو ليس مما سوى الله، "ومن أحب الله عز وجل – برأي عبد القادر الجيلاني – لا يحب غيره"[3]، والمحب الصادق في محبته "لله" لو لقي الخلق كلهم ما حلا له النظر إليه"[4]، فكل مخلوق حجاب عن الخالق عز وجل، مهما وقفت معه فهو حجاب"[5]، وحسد الشيخ عبد القادر الجيلاني للنبوة واضح بقوله مخاطباً الصوفية: يا قومنا فاتتكم الرسالة والنبوة لا تفوتكم الولاية"[6]، وابن سبعين حسب رواية صاحب فوات الوفيات يقول: لقد حجر ابن آمنة واسعاً بقوله لا نبي بعدي"[7].

النبوة باب مغلق ولم يبق أمام القوم إلا الولاية، بالمساواة بين النبي والولي يكون زوال الفرق بينهما، وبالمساواة قال الشيخ علي ولده: اعلم

---

[1] - ص١٨٥ العقلية الصوفية ونفسانية التصوف
[2] - ص١٤٧ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص٢٥٢ الفتح الرباني
[4] - ص٢٥٣ نفسه
[5] - ص٩٧ نفسه
[6] - ص٣٣١ الفتح الرباني
[7] - ص٤٣ بد العارف

أنه "ما جاء أحد بما جاء به محمد إلا عودي"[١]، فالقوم يأتون بما أتاه محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم يخشون عداء الناس لهم، رغم أنهم مثله بالضبط، والرفاعي "قال رضي الله عنه: لم يجلس في البساط م النبي صلى الله عليه وسلم في حضرة الربوبية إلا ثلاث: سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه، والشيخ منصور قدس سره، والرجل الآخر يشير بها إلى نفسه الطاهرة ولم يصرح بها أبداً"[٢]، فللولي إذن الوصول إلى مقام النبوة، إلا أن الأدب والتواضع يمنعه من التصريح بمقامه!

وصلصلة الجرس التي رافقت الوحي عند الرسول صلى الله عليه وسلم، قد أصبحت مقاماً من مقامات السلوك الصوفي، حتى زعموها لهم، فالشيخ عبد الكريم الجيلاني يصرح بتحصيله لهذا المقام، قائلاً: "ليلة أُسري بي إلى السماوات العلا- كنتُ لا أسمع إلا صلصلة تندك الجبال لهيبته وتخضع الثقلان لعزته"[٣]، وعندما تجلى الله عليه بصفة القدرة قال: "وفي هذا التجلي سمعت صلصلة الجرس"[٤]، والغزالي يساوي أيضاً بين النبي والولي في المعرفة قائلاً: أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور في المستقبل، إذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا

[١] - ص٥٣ ج٢ الطبقات الكبرى
[٢] - ص١٨٢ قلادة الجواهر
[٣] - ص٦٤ ج١ بـ٣٢ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل
[٤] - ص٤٠ ج١ بـ١٤ نفسه

يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبياً بل يسمى ولياً"[1]، فالولي له تحصيل ما كان للنبي من معرفة، بلا فرق، وكل ما في الأمر أن الرسول يستخدم كشفه ومعرفته، لإصلاح الخلق، أما الولي فغير مكلف بإصلاحهم، وهذا هو كل الفرق بين النبي والولي.

الولي والنبي سواء في الأخذ عن جبريل، ومريم عليها السلام من حيث هي ولية، جاءها جبريل عليه السلام، وأخذت عنه، "وليس هذا خاصاً بها"[2]، فمن الجائز إذن نزوله على الأولياء، والشيخ ابن قضيب البان يروي أن الله قال له: "كل ما خُصَّت به الأنبياء خُصَّت به الأولياء. وقال لي: مقامات الولاية في أمة محمد هي مقامات أولي العزم من الرسل"[3]، فليس من فرق على الحقيقة بينهما إلا في الاسم.

الفرق بين الولي والنبي فرق في الاسم فقط "وقد صرَّح التستري-. أن عيون الأنبياء تنام ولا ينام موضع الوحي فيهم، والأولياء كذلك تنام عيونهم ولا ينام موضع حالهم"[4] فالفرق بين الأنبياء والأولياء هو الفرق بين موضع الوحي الذي للنبي، وموضع الحال للولي، وبهذه المساواة قال: إنه "ما من نبي إلا وله نظير في أمته"[5].

---

[1] - ص٢٥ ــ ٢٦ ج٣ إحياء علوم الدين
[2] - ص٤٤٠ حقائق عن التصوف
[3] - ص١٦٠ الإنسان الكامل في الإسلام
[4] - ص٦٦ من التراث الصوفي
[5] - ص٢٩٢ نفسه

وفي الاصطفاء لا فرق بين الولي والنبي، "فالولاية – حسب الدباغ – اصطفاء من الله لعبده"[١]، ويقول: "والحمد لله الذي اصطفى من عباده أنبياء وأولياء وأقطاباً وغوثاً وأبدالاً"[٢].

وإذا ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم بعض الشؤون التي تخصه دون غيره أو أصحابه، فالولي أيضاً له أمثال هذه الشؤون، فعلى المريد "أن لا يتزوج قط امرأة رأى شيخه مائلاً إلى التزوج بها، ولا يتزوج قط امرأة طلقها شيخه أو مات عنها"[٣].

النبي صاحب رسالة، والولي الواصل إلى الله قد يردُّ إلى الخلق ثانية وهو مزود برسالة، "فإذا تحقق وصول قلبك- فحينئذ التفت إلى الخلق والدنيا، فيكون التفاتك إليهم نعمة في حقهم"[٤]، والشيخ علي بن وهب السنجاري يزعم أنه بعد أن لبس الخرقة من أبي بكر الصديق، أمره الخضر ومحمد صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى الناس، وقال الله له: "يا عبدي قد جعلتك من صفوتي في أرضي وأيدتك في جميع أحوالك بروح مني وأقمتك رحمة لخلقي، فاخرج إليهم واحكم فيهم بما علمتك من حكمي، واظهر له بما أيدتك به من آياتي، فاستيقظت وخرجت إلى الناس

---

[١] - ص٩٤ ج٢ الإبريز
[٢] - ص5 ج٢ الإبريز
[٣] - ص١٤٤ التصوف بين الحق والخلق
[٤] - ص٩٧ الفتح الرباني

فهرعوا إليَّ من كل جانب"[1]، وقد يكون نذيراً كالنبي تماماً، وسفيان الثوري كان يقول عن صالح المري: "أنه نذير قومه"[2]، وإن كانت الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء فهي أيضاً لا تأكل أجساد الأولياء فجد الشعراني مثلاً مات ولم يبلى جسده، والسبب كما يقول أنه "كان لا يأكل فراخ حمام الأبراج، لأكلها من زرع الناس. وترك آخر عمره أكل عسل النحل"[3] لنفس السبب.

[1] - ص١٣٩ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص٢٩٢ من التراث الصوفي
[3] - ص٣٦ ج٢ م٦٢ اليواقيت والجواهر

- العصمة بين الولاية والنبوة:

الرسول معصوم في أداءه للرسالة، والولي أيضاً معصوم في أحواله وبما يرويه عنها، فقد "كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه مخلوقاً من الرحمة مؤيداً بالثبات والعصمة"[1]، والشيخ عبد القادر الجيلاني معصوم حتى من مكر الله الخفي، فالشيخ حماد حذره ذات مرة من مكر الله، فوضع يده على صدر حماد، فقرأ حماد فيها – أو على كفه – "أنه أخذ من الله سبعين موثقاً أن لا ينكر به"[2].

أما من ناحية العصمة في مخالفة الشرع المحمدي، فالشيخ أبو تراب النخشبي يقول: "بيني وبين الله عهد أن لا أمد يدي إلى حرام إلا قصرت يدي عنه"[3]، فإن الله قد تكفل برد يده عن الحرام، وهذا عهد اتفقا عليه، وأيضاً "كان الحرث المحاسبي إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق فكان يمتنع منه"[4]، وأحدهم زعم بأن له ستين عرقاً من هذا القبيل، والشبلي هو الآخر محفوظ على الحلال، فشجرة التين مثلاً تناديه قائلة: "احفظ عليك عقدك لا تأكل مني"[5]، والقشيري يروي عن أبي القاسم أنه قال: "ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً كما أن من شرط

[1] - ص٥٢ قلادة الجواهر
[2] - ص١٣٩ نفسه
[3] - ص١٧ الرسالة القشيرية
[4] - ص١٣ نفسه
[5] - ص١٧٣ نفسه

النبي أن يكون معصوماً، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع"[1].

وللتمييز بين العصمة التي للأنبياء، والحفظ الذي للأولياء يقول القشيري: "فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً؟ قيل: أما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يُصِّر على الذنوب إن حصلت – فنعم وقد – قيل للجنيد: العارف يزني يا أبا القاسم؟ فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً"[2].

فالعصمة بحق الأنبياء وجوب، أما الأولياء فلهم الحفظ الذي معناه عدم الإصرار على المعصية. أما التفسير الأوضح فنراه في الإبريز حيث عصمة "الأنبياء ذاتية، وعصمة الأولياء عرضية، فإن العارف الكامل إذا وقعت منه مخالفة فهي صورية، لا حقيقية، قصد بها امتحان من شاهدها واختباره، ولذلك أسرار"[3]، فالعارف إذن معصوم ولو اجترح المعاصي والموبقات، لأن اجتراحه هذا ليس إلا لامتحان الآخرين أو لامتحان مريديه!

---

[1] - ص١١٧ نفسه

[2] - ص١٦٠ الرسالة القشيرية

[3] - ص٩٢ ج٢ الإبريز

- خاتم الولاية وخاتم النبوة:

وإمعاناً في المساواة بين النبي والولي الصوفي، قال المتصوفة بختم الولاية مضاهأة لختم النبوة، وكان الحكيم الترمذي أول القائلين بهذه الفكرة، وبعدها توالت المزاعم من الأولياء على هذا المنصب الجديد، فالشيخ محمد وفا زعم أنه "خاتم الأولياء"[١]، والشيخ علي ولده زعم هذا المنصب لوالده حتى اعتبر "الشاذلي وجميع الأولياء من جنود مملكته"[٢]، أما والدة الرفاعي فقد بشرَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم، على لسان أخيها بولدها أحمد الكبير رضي الله عنه، أنه يأتي بعد أربعين يوماً وأنه كما أن النبي رأس الأنبياء، فهو كذلك رأس الأولياء"[٣]، فقد "ختم الله به الولاية كما ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم النبوة"[٤]، "وقال ابن الحاج – عنه - : كان شأنه في الأولياء كشأن جده صلى الله عليه وسلم في الأنبياء"[٥]، وزعمها الكثيرون جداً وعلى رأسهم ابن عربي، إلى حد أن الشعراني المسكين قال على استحياء وخجل: "والذي يظهر أن لكل زمان ختماً"[٦]. وكأنه لا علم له بصراع الأولياء وسعيهم لمضاهأة النبوة.

[١] - ص٢١ ج٢ الطبقات الكبرى
[٢] - ص٣١ نفسه
[٣] - ص٢٥ قلادة الجواهر
[٤] - ص٤٦، ٤٣٢ نفسه
[٥] - ص١٤٧ أشرف الوسائل
[٦] - ص٣١ ج٢ الطبقات الكبرى

- النبوة والكسب عند الغزالي:

لقد رأينا أن الفلاسفة قالوا باكتساب النبوة عن طريق الرياضات، وميزوا النبي عمن سواه بامتلاكه لملكة أو قوة نفسية تأتيه بالعلم من غير تعلم، وبمخيلة قوية لها تجسيد ما لديه من المعاني أو الأفكار في العالم الخارجي، وبقوة أخرى نفسية تنفعل لها الطبيعة لإحداث المعجزات، والغزالي الذي قيل: أنه دخل بطون الفلاسفة ولم يستطع الخروج منها، وفي سبيل ضم الأنبياء للكشف الصوفي أو للأولياء، يقول: "وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف، بكشف إلهي في أسرع وقت"[١]، "فليست آيات القرآن الكريم إلا ثمرة مكاشفة النبي"[٢].

ولما كان الكشف بعرف القوم وسيلة من وسائل المعرفة أو الإدراك، بهذا يكون ارتباط الوحي بالرياضات عند الغزالي، فالنبوة رتبة عالية من الكشف، سريعة جداً إلى حد انعدام المشقة والتكلف، فالنبوة رتبة أو مقام من مقامات السلوك إلى الله، وهي أقصى درجات الوصول، ولما كانت أقواله هذه متضمنة لاكتساب النبوة بالرياضات، ولما كان هجوم الفقهاء المعاصرين له عنيفاً، نراه يقول في كتابه "الإملاء" الذي كتبه

---

[١] - ص٨ ج٢ إحياء علوم الدين

[٢] - ص٦٩ الإنسان الغزالي

لتبرئة الإحياء من المطاعن: آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء"[1]، وقوله هذا على الحقيقة ليس نفياً لارتباط النبوة بالكسب، وإنما إنكاراً للتصريح بزعم النبوة علناً.

النبي برأي الغزالي "كان عقله محيطاً بجميع العلويات والسفليات"[2]، وسبب هذا العلم هو العقل الفعَّال أو المَلَكْ المقرب"[3]، فالنبي بما تميز به من قوة نظرية أوتيت الكمالة في الحدس كان أخذه عن جبريل أو العقل الفعَّال عقل فلك القمر آخر العقول العشرة وفق نظرية الفيض التي قال بها الفارابي أو عن "أبا صلصيائيل أي: جبريل"[4] على حد تعبير الغزالي.

الوصول إلى العقل الفعال والأخذ عنه يحتاج إلى شبه به، لأنه لا اتصال بين الفعال والإنسان إلا بالمناسبة أو بهذا الشبه، فعلى الإنسان التطور ليصبح ذا طبيعة ملائكية، ولن يكون هذا إلا بالرياضات التي الزهد أهمها "فالأنبياء والأولياء – كما يقول الغزالي – انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل الزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال

---

[1] - ص٣٣ كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء
[2] - ص١٠٨ ج١ الرسالة اللدنية
[3] - ص١٤٣ معارج القدس
[4] - ص١٢٤ سر العالمين

بكنه الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له"[1]. فالأنبياء والأولياء سواء في أسلوب تحصيلهم للكشف وفيض المعرفة، ومن أجل الوصول إلى الطبيعة الملائكية والاتصال بهم والأخذ عنهم، يقول: "العلماء يتشبهون بالأولياء، والأنبياء بالملائكة حتى تنمحي عنهم الصفات البشرية بالكلية، فينقلبون ملائكة في صورة الناس"[2]، وعندها يكون لهم الاتصال بجبريل أو العقول المفارقة، لأنهما قد أصبحا على طبيعة واحدة، فقد "تميز النبي عن الناس – كما يقول الغزالي – بعقله المناسب للعقول المفارقة والعقل الأول، كذلك تميز بنفسه المشاكلة لنفوس السماوات والنفس الفلكية، وكذلك تميز بطبعه ومزاجه المستعد لقبول مثل هذا العقل والنفس بالفعل-. فهو المختار في طبعه ومزاجه المصطفى بنفسه وعقله لا يشاركه فيها أحد من الناس"[3]، "فبشريته فوق بشرية الناس لاستعداد بشريته لقبول الوحي"[4].

فللنبي مناسبة ومشابهة بين عقله والعقول المفارقة أو الملائكة وبينه وبين العقل الأول، والمناسبة موجودة أيضاً بين نفسه وبين النفس الكلية، فهو كملك يعيش على الأرض لا كالبشر، ولذلك كان له الأخذ عن النفس الكلية وعن العقول المفارقة، فالله قد اصطفاه لوصوله إلى هذه الدرجة من

---

[1] - ص١٩ ج٣ إحياء علوم الدين
[2] - ص١٢٣ ميزان العمل
[3] - ص١٣١ – ١٣٢ معارج القدس، ص٢٤٠ – ٢٤١ ج١ الإبريز
[4] - ص١٣٢ معارج القدس

المناسبة أو الاستعداد، وهو ما يعنيه الغزالي بالاصطفاء، "وإلقاء الوحي – برأيه – أن النفس – البشرية – إذا كملت ذاتها – بالرياضات – يزول عنها دنس الطبيعة -. وتقبل بوجهها على بارئها -. والله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كلياً-. ويتخذ منها لوحاً، ومن النفس الكلي قلماً، وينقش فيها جميع علومه، ويصير العقل الكلي كالمعلم-. والنفس القدسية – للنبي – كالمتعلم-. ومصداق هذا قوله تعالى: "وعلمك ما لم تكن تعلم""[1]، فالنبي "إنما استعد للمعرفة بقلبه"[2]. وبالاستعداد كان ارتباط النبوة بالرياضات أو الكسب عند الغزالي، ليقول بعدها: "إن العمل بموجب النبوة ليس يخلو عن اكساب واختيار لإعداد واستعداد-. "ومن رياضاته صلى الله عليه وسلم أنه" تورمت قدماه من العبادة-. وكان صلى الله عليه وسلم يتحنث بحراء قبل الوحي وحُبب إليه الخلوة"[3]. فالنبي صلى الله عليه وسلم كان له رياضات كثيرة كلها ترمي لتهيئة نفسه لقبول الوحي أو لتغيير طبيعته حتى يكون له الأخذ عن العقول والملأ الأعلى، فالرياضات من لوازم تلقي الرسالة، ومن لوازم الحصول على النبوة، واستغفاره الكثير صلى الله عليه وسلم عند أهل الله، أوضح دليل على رياضاته للانتقال من مقام إلى مقام "قال عليه السلام: إنه لا يغان على قلبي في اليوم والليلة حتى استغفر الله سبعين مرة". وإنما كان استغفاره

---

[1] - ص١١٤ – ١١٥ الرسالة اللدنية

[2] - ص٢ ج٣ إحياء علوم الدين

[3] - ص١٣٠ – ١٣١ نفسه

من القدم أو المقام الأول، فإنه كان بُعداً بالإضافة إلى القدم – أو المقام – الثاني، ويكون ذلك عقوبة له على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب"[1]. فالرسول صلى الله عليه وسلم في سلوكه بين المقامات كان يستغفر الله دائماً من مقامه الأدنى وما فيه من ذنوب، وكان كلما ارتقى إلى مقام أعلى عرف أن ما قبله كان حجاباً عليه، وكثيراً ما كان استغفاره عن ميله إلى غير المحبوب عز وجل، ولذلك بالطبع تأخر عنه نزول الوحي إبان حديث الإفك!!

وعن القوى والملكات أو الخواص التي تميز بها النبي عن غيره، يقول الغزالي: إن النبي "يختص بأنواع من الخواص: أحدها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره بل مخالفاً له بكثرة المعلومات وزيادة اليقين بالتحقيق والكشف.

والثاني أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات.

والثالث: إن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم.

والرابع: إن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام، إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب"[2].

---

[1] - ص٣٣٥ ج٤ إحياء علوم الدين

[2] - ص١٩٤ ج٤ إحياء الدين

فالنبي إذن مميز بنفسه بقوى أو ملكات خاصة، منها ملكة المعرفة التي بها إدراك الغيب والملأ الأعلى، ومنها أيضاً ملكة إحداث المعجزات، وعن الملكة الثالثة أي المخيلة، يقول الغزالي: اعلموا أن ما تسمعونه عن رؤية الرسول أو صحابته لجبريل مثلاً أو رؤيته للجنة والقصص القرآني وإلى ما هنالك ليس إلا تخييلاً أو تجسيداً لمعقولات مخيلته بهذه الملكة التي له، فجبريل لا وجود موضوعي له في العالم الخارجي، حيث لا وجود إلا لصورة جسدتها مخيلة النبي، حتى أصبحت مرئياً ذات وجود، فأقوى أفعال المخيلة، كما يقول "أن تكون المتخيلة مستمرة في محاكاتها، والعقل العملي والوهم لا يتخليان عما استثبتا فثبت في الذاكرة صورة ما أخذت، وتقبل المتخيلة على بنطاس وتحاكي فيه ما قبلت بصور عجيبة مسموعة ومبصَرة"[١]. وبهذا أصبح جبريل مرئياً للنبي وصحابته! ولما رأى الغزالي أن الفلاسفة قد أشركوا المرضى والكهان والمجانين والسحرة بالنبوة، هبَّ هو الآخر للاستشهاد بهؤلاء على صدق ما تفعله مخيلة النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: "والمجانين قد يشاهدون ما يتخيلون"[٢]، وكذلك الممرورون، فالممرور أيضاً "يشاهد – عقله العملي – ما هنالك ويتأدى ما يشاهده إلى الخيال فيظهر فيه كالمشاهد

[١] - ص١٣٨ معارج القدس
[٢] - ص١٣٩ نفسه

المسموع"[1]، وتلك هي نفس الطريقة التي يجسد بها النبي ما يراه في الملأ الأعلى أو عالم العقول "فالممرورون والمجانين يعرض لهم أن يتخيلوا ما ليس موجوداً... وأما إخبارهم بالغيب فإنما يتفق أكثر ذلك لهم عند أحوال كالصرع والغشي الذي يفسد حركات قواهم الحسية"[2].

فليست النبوة برأي الغزالي بالشيء الذي لا نظير طبيعي له، وهل من عتب بعدها على الفلاسفة إن كان حجة الإسلام كما يقال قد سار وراءهم حذو النعل بالنعل.

وطالما يحيا الغزالي في البيئة الإسلامية وثقافتها فما الذي سيقوله للتمييز بين النبي والولي، وقد ساوى بينهما بالرياضات والكسب؟ يقول: الولي نبي غير مكلف، ومحمد صلى الله عليه وسلم أو النبي مكلف، فهذا هو كل الفرق طالما للولي نفس القوى أو الملكات التي للنبي، وبناء عليه كما يقول: "فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبياً بل يسمى ولياً"[3]، فالنبي والولي سواء، إلا أن النبي مكلف وصاحب مشقة، بينما الولي في راحة من هذا الأمر، وسبحانه تعالى "يعبِّر عن الصافي القوي الاستعداد بأنه "يكاد زيته يضيء ولم تمسسه نار" إذ في الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد

---

[1] - ص١٤٠ نفسه
[2] - ص١٣٩ معارج القدس
[3] - ص٣٤١ حياة محمد الروحية

يستغني عن مدد الأنبياء"[1] وزيتهم، فالولي الذي صفت نفسه وقوي استعداده أصبح مثله مثل الأنبياء وله الغنى عن مددهم!

ويأبى الغزالي احتراماً للبيئة التي ترعرع فيها إلا التمييز بين النبي والولي، حيث قال: "فالوحي حلية الأنبياء، والإلهام زينة الأولياء"[2]، والوحي حسب إحيائه يكون "مصحوباً برؤية الملاك جبريل. وأما الإلهام فلا يدري صاحبه كيف حصل له ولا من أين حصل"[3] وهكذا يتميز النبي عن الولي.

ولما كان هذا التمييز بين الإلهام والوحي يحجر مزاعم المتصوفة عن رؤية الملائكة بإخذهم للمعرفة مما يؤدي إلى تجهيلهم بمصدر الإلهام، هبَّ ابن عربي مهاجماً الغزالي في نظريته تلك لينعته بالمريد، فالمسكين برأيه لم يكن له الوصول إلى مقام الرؤية فظن أن ذلك نهاية الطريق حتى كان له نفي رؤية الملك عن الأولياء، والدباغ الأمي يستعير هذا المعنى من ابن عربي حرفياً ليقول: إن "المفتوح عليه سواء كان ولياً أو نبياً، لا بد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه ويخاطبهم ويخاطبونه، وكل من قال أن الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه، فذاك دليل على أنه غير مفتوح عليه. والصواب أن الفرق – بين الولي والنبي هو –

---

[1] - ص١١٦ مشكاة الأنوار

[2] - ص١١٦ ج١ الرسالة اللدنية

[3] - ص٧١٣ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية

فيما ينزل به الملك، - لا في الرؤية أو عدمها – فالولي إذا نزل عليه الملك فقد يأمره بالاتباع، وقد يخبره بصحة حديث ضعفه العلماء وقد ينزل عليه بالبشرى"[1]، كما "في قصة مريم، فإن الملك نزل عليها بالأمر وليست نبية"[2].

فمسكين الغزالي، فلا بقي مع صراحة الفلاسفة، حتى نعتوا معارفه الفلسفية بخيط العنكبوت على حد تعبير ابن سبعين، ولا مع المؤمنين حتى شكُّوا في عقيدته، ولا كان له الإخلاص لمعنى الوصول الصوفي حتى أصبح برأيهم من المحجوبين على حد تعبير ابن عربي.

- ملاحظة: إن من يدافع عن الغزالي من باب حسن النية وأنه لم يقل باكتساب النبوة، يكذبه ابن عربي ليشهد بأنه قد قالها صراحة ودون مواربة وهذا ما سوف نراه فيما بعد.

---

[1] - ص٣٩٨ ج١ الإبريز
[2] - ص٣٩٨ نفسه

- استمرار النبوة:

فطالما النبوة رياضات وكسب ملكات ومقامات، فهي كائنة لكل من سعى لها ولا حجر بالتالي على من زعمها بعد خاتم الأنبياء، وقد "نُسب إلى عبد الحق ابن سبعين، أنه تجرأ على هذا المقام – مقام النبوة – وأنه كان يقول معلقاً على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا العاقب فلا نبي بعدي": لقد زدتُ فيه "نبي عربي يعني نفسه""[1]، وانسجاماً مع عقيدته في وحدة الوجود التي آمن بها، زعم أن "النفس النبوية تأخذ الأمر من الأول الحق والذات العلية المنزهة بلا واسطة ولا تركيب"[2]، فلا وجود برأيه لجبريل ليأتي بالرسالة حيث لا مسافة ولا فرق بين الخالق والمخلوق. أما ابن مسرة، فقد "نسبوا إليه القول باكتساب النبوة، وأن من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس أدرك النبوة، وأنها ليست اختصاصاً أصلاً"[3]، وما كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لرياضاته التي سلكها، والشيخ أبو حمزة الأزدي حسب بهجت النفوس يرى أن "النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أولاً في التحنث ودام عليه بأدبه، إلى أن ترقى من مقام إلى مقام، حتى وصل إلى مقام النبوة، ثم أخذ في الترقي في مقامات النبوة، حتى وصل به المقام إلى قاب قوسين أو أدنى"[4].

---

[1] - ص١٩٢ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[2] - ص٣٥٤ ابن سبعين وفلسفته الصوفية
[3] - ص١٢٩ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[4] - ص٢٤٦ – ٢٤٧ حقائق عن التصوف

والنابلسي يذكرنا تارة أخرى بتفسير الغزالي لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة" ليقول وفي ذهنه تقويم فكرة الغزالي: "واستغفار النبي صلى الله عليه وسلم ليس من غين الأغيار بل من غين الأنوار لأنه دائم الترقي، فكل ما رقي إلى رتبة في القرب الإلهي، وجد الرتبة التي كان فيها قبل ذلك غيناً وحجاباً فيستغفر منها"[١]، وهل للإنسان الأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في مقاماته الأولى مقارنة بما سيقوله على الحقيقة فيما بعد؟!

---

[١] - ص٨٣ شروح رسالة الشيخ أرسلان

- النبوة والكسب عند عبد القادر الجيلاني:

بالرياضات يقول الشيخ عبد القادر: يصبح الإنسان سفيراً بين الخالق والمخلوق، يصبح رسولاً للأمة، يقول: "اخدمه في الطريق- فيقرِّبك عيناً ثم يستنيبك على القلوب والأحوال والمعاني فتصير سفيراً بين الله عز وجل وبين خلقه، غلاماً بين يدي نبيك صلى الله عليه وسلم، تأتي إلى الخلق والخالق مرة بعد مرة"[١]. فالغلام تابع للنبي صلى الله عليه وسلم في تحصيله للمقامات ووراءه يسير خطوة خطوة، فهو على سنته ونهجه.

الصوفي يصبح سفيراً ورسولاً بالرياضات، وتلك سنة الأنبياء، فـ "الأنبياء عليهم السلام ما زالوا – كما يقول – يخالفون نفوسهم وطباعهم وشهواتهم حتى التحقوا بالملائكة من حيث الحقيقة لكثرة مجاهداتهم ومكابداتهم لأنفسهم"[٢]، "ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم لما مال إلى ولدي ابنته الحسن والحسين جاءه جبريل عليه السلام فقال: أتحبهما؟ فقال: نعم. فقال: أما أحدهما فيسقى السم وأما الآخر فيُقتل، فخرجا من قلبه وفرَّغه لمولاه عز وجل"[٣]. وهكذا زهَّده الله في كل ما سواه بهذه البشارة التأديبية ليتاح له الانتقال إلى المقامات العلى، "فالعلماء والأولياء والأبدال

---

[١] - ص٢١١ الفتح الرباني
[٢] - ص٩٠ – ٩١ نفسه
[٣] - ص١٩١ نفسه

كما يقول – الجيلاني – ورَّاث الأنبياء. الأنبياء السماسرة. وهؤلاء المنادون بين أيديهم"[1]. فالأولياء من جملة الورثة وهم المنادون بين أيدي السماسرة الذين هم الأنبياء ولكن هيهات لشيخنا أن تكون له القناعة بهذا الدور وها هو يقول: وأنا منادٍ تارة وسمسار أخرى، ومالك المتاع أخرى، أعطِ كل شيء حقه"[2]. فهو ليس ولياً فحسب ولا نبياً فحسب بل له مقام السفارة أو الرسالة الأخرى كتلك التي نادى بها الرسل والأنبياء فليس هناك من فرق برأيه بين النبي والولي، ولو اضطره الأمر للقسم، لفَعَلَ، وفي ذلك يقول: "والله ثم والله إن أحوال الأولياء كأحوال الأنبياء لكن لقبهم غير ألقابهم"[3]. فلا فرق بينهما إذن، إلا في الاسم فقط، وهو تماماً كالفرق بين السيف والمهند!

---

[1] - ص٦٠ نفسه

[2] - ص٧١ نفسه

[3] - ص٣٤٧ نفسه

- السهروردي المقتول واستمرار النبوة:

انطلاقاً من الرياضات قال السهروردي باتصال الأنبياء والأولياء على السواء مع العقل الفعَّال، بل تعدى ذلك إلى إشراك النائمين من الناس العاديين والمرضى والكهان، وقد يكون كما يقول في مجموعة في الحكمة الإلهية "لضعف العائق بحسب ضرورة ما كما في المنام، أو فطري كما لكثير ممن ضعفت آلاته الفطرية، أو كما للممرورين والمصروعين أو كسبي كما عند الكهان"[١].

فقانون الرياضة على الإطلاق يعني أنه إذا ما ضعفت القوة الحسية لأي سبب من الأسباب، فلا بد أن تتحرر عندها القوة الخيالية التي بها يكون اتصال النفس بعالم الغيب، "فإذا خمدت النفس الحسية – على حد تعبيره – وقلَّت الشواغل، فقد يقع للنفس الناطقة خلسة إلى جانب القدس، فانتقشت بنقش غيبي، فقد ينطوي سريعاً، وقد يشرق على الذكر وقد يتعدى إلى الخيال، فيتسلط الخيال على لوح الحس المشترك – أو بنطاسيا – فتظهر فيه الصور على أكمل هيئتها وأبهاها، وهي صور الملائكة أو العقول، فتناجيه بالغيب أو يرتسم صورة الأمر الغيبي مشاهدة أو يسطر على سبيل الكتابة، وقد يكون على هيئة نداء هاتف لا يُرى، أو على غلبة ظن بالأمر الغيبي، فيطلع الإنسان على هذا الأمر"[٢]. فالوحي تبعاً لذلك

---

[١] - ص١٨٩ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[٢] - ص١٩ نفسه

ليس إلا قدرة من النفس "والمعرفة في عمومها عنده سواء كانت وحياً أو غيره مصدرها النفس وآلتها قوة المخيلة وكلاهما مصدر داخلي في الإنسان- فليس هناك وحي خارجي يأتي من طريق إلقاء جبريل- فالنفس تستقبله عن صورته التي في العقل الفعال"[١].

فالنبوة برأيه كما هي عند الغزالي والفلاسفة ذات قوى ثلاث:

1 – "قوة عقلية ينال بها العلم من غير تعلم.

2 – قوة خيالية يرى فيها الأمور الغيبية كما يراها النائم.

3 – قوة تؤثر في العالم"[٢]وبها إحداث المعجزات، "فالمعجزات سببها وجود هذه القوة الإلهية في نفس النبي، تكون كأنها نفس العالم، يطيعها العنصر طاعة بدنها لها، إذ أن العناصر تطيع المجردات"[٣].

النبوة مستمرة برأيه، وقد قال في كتبه إن الله يملك إن شاء أن يخلق نبياً ولا استحالة على الله مطلقة"[٤]، "فحفظاً للقدرة الإلهية من إلحاق النقص بها، يقرر إن كان خلق نبي جديد"[٥]! "فالنبوة في نظر السهروردي لا يمكن أن تنقطع فهي ضرورية الحصول من وقت إلى آخر لحفظ النظام

[١] - ص١٩١ نفسه
[٢] - ص٣٤٧ أصول الفلسفة الإشراقية
[٣] - ص١٤٧ نفسه
[٤] - ص١٣٠ شخصيات قلقة في الإسلام
[٥] - ص٢٦ نفسه

ولمصلحة النوع"[1]، "ولا تظنن أن الحكمة – أو النبوة – كما يقول في حكمة الإشراق – في هذه المدة القريبة كانت لاغية، بل العالم ما خلا قط عن الحكمة، وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات وهو خليفة الله في أرضه وهكذا يكون ما دامت السموات والأرض"[2]. أي: ما دامت السموات والأرض موجودة فالنبوة مستمرة وموجودة، "ولا تخلو الأرض عن متوغل في التأله أبداً"[3]، وما الانقطاع إلا لنبوة التشريع فقط، أما نبوة المعرفة أو العقائد أو النبوة العامة فـ "غير مقفلة"[4] ولا انقطاع لها، وإذا ما كانت "الأرض لا تخلو من إمام، فكيف ينتهي المرسلون عن محمد؟"[5].

المعرفة غير التشريع، ونبوة المعرفة أو العقائد لا انقطاع لها، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الخاتم لنبوة التشريع لا لنبوة الولاية، والشيخ عبد الكريم الجيلاني يقول: "فمن اقتصر من الأولياء على نفسه فقد ناب عن محمد صلى الله عليه وسلم في مقام النبوة ومن يهدي إلى الله تعالى كساداتنا الكمل من المشايخ فقد ناب عنه في مقام الرسالة. فهؤلاء أنبياء لا أولياء، يريد بذلك نبوة القُرب والإعلام والحكم الإلهي لا نبوة

[1] - ص٢٨ نفسه
[2] - ص١٨٦ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[3] - ص١٨٧ نفسه
[4] - ص١٠٠ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم
[5] - ص١٠٨ أصول الفلسفة الإشراقية

التشريع"[1]، "فمن دعا منهم إلى الله تعالى قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان رسولاً ومن دعا بعد محمد صلى الله عليه وسلم كان خليفة لمحمد صلى الله عليه وسلم لكنه لا يستقل في دعواه بنفسه ـ. ومن لم يدع إلى الله تعالى بل وقف مع تدبير أمور الخلق على حسب ما يبينه الله تعالى عن أحوالهم فهو نبي نبوة ولاية. ثم هذا إذا كان على طريق مستقلة من غير اتباع لمن قبله فهو نبي نبوة تشريع ـ. فعلم من هذا أن ولاية النبي أفضل من نبوته مطلقاً، ونبوة ولايته أفضل من نبوة تشريعه، ونبوة تشريعه أفضل من رسالته"[2].

وهكذا يكون التمييز في النبي بين ولايته وتشريعه ذا شأن عظيم في الفكر الصوفي، فالولي ينوب عن النبي في نبوته ورسالته وهو عندئذ نبي أو على نبوة قرب ومعرفة وحكم، فإذا أفتى الصوفي بمسألة ما فهو حكم الله ورسوله وله النبوة في ذلك بل والرسالة أيضاً، فإن الله يرسل أولياءه من حضرته بعد الوصول إليه، إلى الخلق تارة أخرى لإصلاحهم، وما الفرق بين رسالة الرسول ورسالة الصوفي عندها إلا بالاسم فقط وبالاسم يسمى الولي رسولاً إن كان وجوده قبل محمد صلى الله عليه وسلم، ويسمى خليفة أو نبي ولاية إن كان بعده، وللخليفة رسالة التأويل كما هي

---

[1] ـ ص٨٥ ج٢ بـ٦٣ الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر

[2] ـ ص٨٦ ج٢ بـ٦٣ نفسه

رسالة تنزيل لمحمد صلى الله عليه وسلم، وبذلك يكون عدم استقلال رسالتهم وتشريعهم التأويلي وإصلاحهم للخلق عن نبوة.

وبتفضيل بعض النبي على بعضه الآخر، كان تمييزهم بين الولاية والنبوة، أو نبوة الولاية ونبوة التشريع، حتى كان لهم تفوق معارفهم أو عقائدهم على الأنبياء، حتى قالوا أن ولايته على الإطلاق أفضل من نبوته، وبذلك أيضاً تكون المساواة في الرياضات بين الولي والنبي حيث أن الكسب واقع على الولاية التي اشترك بها كلاهما والشعراني يقول: "الولاية في كل من النبي والولي مكتسبة، وما خرج عن الكسب سوى النبوة"[1] نبوة التشريع، وابن عجيبة وبعد أن جعل معرفة النبي هي الأعظم، وبعد أن قال بالوصول الغريزي للنبي، قال: "وأما السير بمعنى الترقي فهو ثابت له – صلى الله عليه وسلم – على الكمال. أنه لا يغان على قلبي. غين أنوار لا غين أغيار. فكلما كُشف له عن مقام رأى ذلك المقام نقصاً باعتبار ما بعده ورآه حجاباً وتغطية لما فوقه وهكذا. ولذلك قال له: وقل رب زدني علماً"[2]. فالزيادة في المعرفة هي المطلوبة وإلا لكان محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم المعرفة بعكس التشريع الذي نهينا عن الاستزادة منه، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم خاتماً لنبوة التشريع لا

[1] - ص٢٧ ج٢ م٣٣ اليواقيت والجواهر
[2] - ص٢١٣ ج٢ إيقاظ الهمم

لنبوة المعرفة أو الولاية التي طالبنا سبحانه بالمزيد منها، حيث لا معنى للمزيد إلا الاستمرار.

وفي معرض حديثه ابن عجيبة عن أنواع الوحي الأربعة يقول: لقد شاركتْ الأولياء الأنبياء في ثلاثة: وحي إلهام ووحي منام ووحي إعلام وهو الفهم عن الله، وانفردت الأنبياء بوحي الأحكام"[١] أما الشعراني فيضم إلى هذه الأنواع الكتب اللدنية، فوحي الولي يقول: قد يكون "كتاباً ويقع ذلك كثيرا للأولياء كقضيب البان ونحوه"[٢].

فليس للنبي فضل على الولي إلا في كونه مصدر الأحكام الشرعية التي فيها بيان الحلال من الحرام، أما في العقيدة أو في المعرفة فالأولوية للولي لا للنبي إلا أنه باستخدامهم للتأويل عبوراً من ظاهر الشرع إلى باطنه يكون أيضاً تجريدهم للنبي من كل ما تعنيه نبوة التشريع التي حدُّوه بها.

---

١ - ص١١٩ ج٢ إيقاظ الهمم

٢ - ص٥ – ٦ ج١ الأنوار القدسية

- الولي أفضل من النبي:

للنبوة ظاهر وباطن والتشريع ظاهرها والمعرفة أو العقيدة باطنها، وبالتأويل يمكن رد الظاهر إلى الباطن الذي فيه كل الحقيقة، وبالحقيقة كانت أفضلية الولاية على النبوة، ومن المعروف أن "مسألة المفاضلة بين الأنبياء والأولياء ظهرت في التصوف، وكان أول من أثارها متصوفة الكوفة عند رباح وكليب من زهاد الزنادقة، ثم ظهرت بعد ذلك في كلام متصوفة الشام كأبي سليمان الداراني المتوفى سنة ٢١٥ هـ، وأحمد بن أبي الحواري المتوفى سنة ٢٣٠ هـ، وكذلك ذهب هذا المذهب محمد بن علي الحكيم الترمذي الذي يستشهد بالحديث القائل: إن لله أولياء ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء"[١]. ومن المعروف أيضاً أن أبا نصر السراج في كتابه "اللمع" حذَّر ممن "يضع الأولياء أعلى من الأنبياء"[٢]، والسلمي اعتمد مقولة: "نهايات الأولياء بدايات الأنبياء"[٣] لتكون سداً أمام الزاعمين لتفضيل الولاية على النبوة، وهذا يعني أن فكرة تفضيل الولاية على النبوة موجودة في الفكر الصوفي منذ عصر مبكر، وبداية هذه الفكرة قد بدأت مذ كان قولهم بأفضلية ولايته صلى الله عليه وسلم على نبوته، وقد أشار الترمذي في رسالته "بدء الشأن" إلى "أن نبوة الأنبياء ورسالة الرسل لهما نهاية وحد في هذه الدنيا. وعلى العكس من

[١] - ص٢٩٣ التصوف الثورة الروحية في الإسلام
[٢] - ص ٣٥ ــ ٣٦ مجلة التراث العربي ١٩٨٩
[٣] - ص١٨٠ نفسه

ذلك تستمر صفة الولاية أبدية، وهذا ما يفسر أن الولي هو أحد الأسماء الإلهية. فصفة الولاية في شخص الرسول أو النبي نفسه تستمر أبدية على حين أن فعل رسالته أو نبوته ينتهيان بانتهاء العالم"[1]، والنابلسي إضافة إلى ذلك يرى أن ولاية النبي أفضل من نبوته ورسالته، لأن ولايته سر بينه وبين الله تعالى، بينما نبوته سر بينه وبين جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة، ورسالته سر بينه وبين أمته، ولا شك أن السر الذي بينه وبين الله تعالى أفضل من السر الذي بينه وبين الملائكة أو الأمة"[2].

فولاية النبي أفضل من نبوته لأن الله تسمى بالولي ولم يتسم بالنبي فهي مستمر بعكس النبوة ، ولأن الولاية سر بين الله ونبيه والنبوة سر بين النبي والملائكة كان تفضيل الولي بإطلاق أو الولاية على النبوة، والشاذلي يقول: الأدنى يشرف على الأعلى ولا يحيط به، والأعلى يحيط بالأدنى، فالأولياء لهم إشراف على مقامات الأنبياء وما لهم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء"[3]. فللولي الإشراف على مقامات الأنبياء دون الإحاطة بكل مقاماتهم، وللنبي الإحاطة بكل مقامات الولاية، فولاية النبي تبعاً لذلك أعظم من ولاية الولي، ولكن ولاية الولي بالطبع أعظم من نبوة النبي لأنها هي الأخرى سر بين الله والولي، ولأنها

---

[1] - ص١٧٩ نفسه

[2] - ص٣٧٩ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس

[3] - ص٢٠٥ لطائف المنن

ذات استمرار أبدي طالما اقترنت باسم من أسماء الله عز وجل. والشيخ ابن المبارك يقول مجيباً على سؤال أيهما أفضل الولي أم النبي، قائلاً: فأقول – للمنكرين – هل يقدر ربنا جل جلاله على إيجاد مثل هذا العالم؟ فيقولون: ومن يتوقف في هذا، وربنا على كل شيء قدير"[١]. إذن فإن الله برأيه قادر على إيجاد الولي الأعرف والأفضل من النبي صلى الله عليه وسلم، فهو القادر على كل شيء ولا إنكار لقدرته.

وليس للقوم الاحتجاج بالقدرة فقط في تفضيلهم الولي على النبي، بل قالوا أيضاً: أنه شتان بين من يأخذ من الله مباشرة وبين من يأخذ منه بالوسائط والحجب كجبريل والملائكة، وإلى ما هنالك، وهو تفسيرهم للسر الذي بين الله وأوليائه، فالأولياء كما يزعمون "يتلقون الفيض وما يسمونه العلم اللدني عن الله مباشرة"[٢]، بينما "النبي يأخذ بواسطة الملك"[٣]، وقد مر معنا من قبل زعمهم للاستغناء عن مدد الأنبياء وزيتهم على حد تعبير الغزالي، فبالأخذ عن الله مباشرة يكون استغناؤهم عن الأنبياء وعقائدهم.

وليست ولاية الصوفي أفضل من نبوة النبي فحسب بل أن الولي في معنى الرسالة مساوٍ للرسول، وقد مرَّ معنا عند الحديث عن التكليف قصة

[١] - ص٢٢٠ ج٢ الإبريز
[٢] - ص٩٢ الصوفية في نظر الإسلام
[٣] - ص٤٢٥ المعقول واللامعقول، ص٢٥ – ٢٦ ج٢ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

رد الواصل تارة أخرى للقيام بالتكليف وإرشاد الخلق وليس هذا في المصطلح الصوفي إلا كنوع من الرسالة ولكنها رسالة بالفهم الذي معناه التأويل وفق المُدرك من القرآن الأم أو الحقيقي، ولما كانت مهمة النبي إبلاغ رسالة الله إلى خلقه فإن وظيفة الولي بالمقابل إبراز رسالة النبي للخلق على شكلها الحقيقي، ومن ثم إرشادهم إلى سلوك واعتقاد ما يقوله هو من حقائق معرفية.

يقول المتصوفة: لقد كان الفهم للنبي صلى الله عليه وسلم من حيث ولايته دونما شوائب، ولكنه من أجل نقل ما عرف للخلق من حيث هو رسول، اضطر للترجمة، وبالترجمة راعى اختلاف عقول المخاطبين، ومن هذه الناحية تكون معارف الولي الصوفي الذي له الفهم الخالص أفضل مما يعرفه الخلق من رسالة الرسول، وبهذا المعنى زعم الشيخ ابن التومرت أن الأنبياء شوهوا معارفهم لمصلحة الخلق وكان هو وأصحابه "لا يفرقون بين النبي والساحر إلا من جهة حسن القصد، فإن النبي يقصد الخير والساحر يقصد الشر. وكلاهما عندهم يكذب، لكن الساحر يكذب للعلو والفساد والنبي عندهم يكذب لمصلحة"[1] الخلق، والشيخ الهروي بمعرض حديثه عن التلبيس وأنواعه نعت الأنبياء بأنهم مُلبِّسون على الخلق حقائق الأمور فـ "التلبيس الثالث – كما يقول -: تلبيس أهل التمكين

[1] - ص١٨٢ ج١ رسالة معارج الوصول

على العالَّم، ترحماً عليهم بملابسة الأسباب. وهذه درجة الأنبياء، ثم هي للأئمة الربانيين"[1]، ولكن كما يقول ابن القيم الجوزية "كيف تتسع مسامع المؤمن ليسمع أن الأنبياء لبَّسوا على الناس بأي اعتبار كان؟ سبحانك هذا بهتان عظيم"[2]، فالرسل حسب التصوف أدركوا الحق لكنه بإظهاره للخلق وكسباً لكثرة الأتباع، كان تشويههم له، وما العودة إلى الحق الباطن إلا بتمزيق هذه الحجب التي ألبسوها للحقائق بواسطة التأويل أو بالوصول إلى إدراك الفهم من مصدره دون ترجمة أو غاية، عندها يكون الولي هو المعيار والحكم في كل ما تقوله النبوة والرسالة ولا أفضل من الصوفي حينئذ.

الولي أفضل من النبي والشاذلي المغربي يقول: "وكفى شرفاً بعلم القوم قول موسى عليه الصلاة والسلام للخضر عليه السلام "هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا"[3]، "وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"؟ والشيخ أبو المغيث بن جميل"[4]، والشيخ أبو يزيد البسطامي قالا: "خضنا بحراً وقفت الأنبياء بساحله"[5]، فـ "دائرة الولي – كما قال أحدهم - أوسع من دائرة النبي"[6] والسهروردي المقتول يرى "أن مقام

---

[1] - ص٤٠٦ ج٣ مدارج السالكين
[2] - ص٤٠٦ نفسه
[3] - ص١١٦ ج٢ الطبقات الكبرى
[4] - ص٣٦ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلاني
[5] - ص٢٣١ ج٢ الفتح الإلهي
[6] - ص٢٣١ نفسه

الحكيم المتوغل في التأله والبحث – أي الولي والفيلسوف – أعلى من مقام الأنبياء"[1]، "وقد شهد قوم على أحمد بن أبي الحواري: "أنه يفضل الأولياء على الأنبياء"[2]، والشيخ عبدالكريم الجيلاني "يؤمن بأن الأولياء أفضل من الأنبياء"[3]، وابن البنا يقول:

"ثم أمام العالم المعقول معارف تلغز في المنقول " [4]

لأن دائرتهم أوسع من دائرة الأنبياء، وأوسع مما نقل لنا عنهم.

الولي الصوفي في الشفاعة أعظم شأناً من محمد صلى الله عليه وسلم، والشبلي يقول: "إن محمداً يشفع في أمته، وانا أشفع بعده حتى لا يبقى فيها – أي جهنم – أحد"[5]، وحسب رواية "السهلجي" والشعراني: "قيل لأبي يزيد أن الخلق كلهم تحت لواء محمد صلى الله عليه وسلم. فقال أبو يزيد: تا الله إن لوائي أعظم من لواء محمد عليه السلام: لوائي من نور تحته الجان والإنس، كلهم من النبيين"[6].

الولي أفضل من النبي والأنبياء أنفسهم يشهدون بذلك، وابراهيم الخليل على ذمة الدباغ مثلاً: يطلب الدعاء الصالح من سيدي منصور"[7]،

---

[1] - ص٢٤١مدخل إلى التصوف الإسلامي
[2] - ص١٦٧ تلبيس إبليس
[3] - ج١ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[4] - ص١١٢ ج١ الفتوحات الإلهية
[5] - ص٣٨٠ دراسات في التصوف الإسلامي
[6] - ص١٤٣ النور من كلمات أبي طيفور
[7] - ص١٦٦ ج٢ الإبريز

في واقعة بينهما. والتستري يقول برواية لدنية من عند نفسه: إن الله أوحى إلى داوود عليه السلام: يا داوود! إذا رأيت لي طالباً أو ولياً فكن له خادماً، فكان داوود يقول في مزاميره: واهاً لهم يا ليتني عاينتهم يا ليت خدي نعل موطئهم"[1].

الولي أفضل من النبي وتعامله مع الملائكة يثبت ذلك، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: "خرج – صلى الله عليه وسلم إلى حراء -. كان فيه كهف، كان فيه عابد يقال له أبو كبشة، جاء مكانه-. نودي يا محمد يا محمد! هرب من الصوت جاء إلى بيته"[2]، فالرسول إذن تبع جده أبو كبشة الذي جاء بعبادة الشعري أو الكواكب في رياضاته ومكان تعبده، فجلس مكانه في غار حراء، ولما سمع صوتاً يناديه ولى هارباً إلى بيته، فأين هو من الجيلاني القائل: "كنت أسمع في صغري وأنا في بلدي قائلاً يقول لي: يا مبارك! فأهرب-. فقال لي: إذا رأيت إنساناً يهرب مني فاعلم أنه منافق"[3]. هذا ما قاله جبريل وحكم به على من هرب منه!! أما الشيخ أبو محمد القناوي فقد كان اتصاله بجبريل من العظمة إلى حد لا مقارنة بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فقد "كان إذا شاوره إنسان في شيء يقول: امهلني حتى استأذن لك فيه جبريل عليه السلام، فيمهله ساعة ثم

---

[1] - ص٢٩٠ من التراث الصوفي
[2] - ص٣١٤ الفتح الرباني
[3] - ص٣١٧ نفسه

يقول له: افعل أو لا تفعل على حسب ما يقول جبريل"[1]. وهل للنبي أياً كان أن يقارن نفسه بأولياء التصوف؟ فقد "روي أن سليمان بن يسار – كما يقول الغزالي – كان من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأة وسألته نفسه، فامتنع عليها وخرج هارباً من منزله وتركها فيه. قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف، الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهم"[2]. فالولي في عصمته أو حفظه أعظم من عصمة النبي وها هو النبي يوسف عليه السلام قد شهد بذلك!

الولي أعظم وأفضل من النبي لأنه على الأقل أعلم بالغيب من محمد صلى الله عليه وسلم إن لم يكن مساوياً له، ولهذا فإن الدباغ يحبس علم الرسول للغيب بمعرفة التكاليف تارة، وتارة أخرى، ولاستثناء الأولياء عن حصر قوله تعالى "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من اقتضى من رسول"، يقول: الحصر الذي في كلام الله تعالى"[3] "الغرض منه إخراج الكهنة والعرافين ومن له تابع من الجن-. "أما الأولياء من الحق لا من الباطل، فلا يخرجهم الحصر الذي في الآية ونحوها"[4]، "إنما يخرج غير الرسول، وأما الولي فإنه داخل في الآية مع

---

[1] - ص١٥٧ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٠٥ ج٣ إحياء علوم الدين
[3] - ص٤٣٠ ج١ الإبريز
[4] - ص٤٣١ نفسه

الرسول- فإذا طلع الرسول على غيب فلا بد أن ينال أصفياء أمته شيء من ذلك"[1]، ولما علم الدباغ بقول الله عز وجل: "أن الله عنده علم الساعة وينزل الغيب ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت" زعم معرفة ذلك كله بل وزعم معرفة النبي لهذه الخمس المغيبات قائلاً: "وكيف يخفى أمر الخمس عليه صلى الله عليه وسلم والواحد من أهل التصرف في أمته الشريفة لا يمكنه التصرف إلا بمعرفة هذه الخمس"[2]. وبنفس هذا المنطق قرر معرفته إلى ليلة القدر، فهو يعرفها ولو كان جيفة فكيف لا يعرفها الرسول صلى الله عليه وسلم"[3]، ولما اصطدم الدباغ بحديث الرسول الذي فيه نفي علمه للساعة ومتى قيامها قال: "إنما قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لأمر ظهر له في الوقت- وكيف يخفى عليه ذلك، والأقطاب السبعة من أمته الشريفة يعلمونها، وهم دون الغوث فكيف بالغوث، فكيف بسيد الأولين والآخرين الذي هو سبب كل شيء، ومنه كل شيء"[4].

فالرسول إذن نفى علمه للساعة لغين كان على قلبه في وقت من أوقات بشريته، ولكنه على الحقيقة يعلمها فكيف لا يعلمها وهو الذي سبب ومصدر الوجود كله، وبهذا الإلزام كان اعتقاد المتصوفة بالحقيقة

---

[1] - ص٤٣٣ نفسه
[2] - ص٤٣٤ نفسه
[3] - ص٤٣٤ نفسه
[4] - ص٣١٠ ج٢ الإبريز

المحمدية، فهم في معارفهم أعظم من محمد البشري الذي ارتبطت به الأخبار، ولكنه في حقيقته الروحية هو الأعظم، وارجع إن شئت المزيد إلى كتابنا السنة النبوية والحقيقة المحمدية في التصوف.

أما صاحب "الكبريت الأحمر" فقد حدد الغيب عند الأنبياء وحصره بمعرفة التكاليف، فالتكاليف هي الغيب الذي اطلعه الله لرسوله، أما غيرها فهو مقدور للأولياء دونما حد، طالما لم يقولوا بفرائض وتكاليف جديدة، وهو المعني بقوله تعالى "فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول"، "فالمراد بهذا الغيب الذي يطلع عليه رسوله هو علم التكاليف الذي غاب عنه العباد"[١].

وللدباغ نكتة أخرى في نفي ما قاله الرسول بالوجود الموضوعي للجنة والنار، تقول: إن الغيب عند الأنبياء ليس إلا أنباءهم "فهم عليهم الصلاة والسلام في كلامهم بمثابة أهل الجنة في شهواتهم، فكما أن أهل الجنة إذا اشتهوا شيئاً كان لا محالة، فكذلك الرسل إذا قالوا شيئاً كان لا محالة"[٢]، "وإذا أخبروا بشيء فإنه كائن لا محالة، وواقع من غير ريب"[٣]، فالذي يقوله الأنبياء في أخبارهم حتى لو كان لا وجود واقعي له، قد تكفل الله بإيجاده في الواقع، فإخبارهم بوجود الجنة والنار وإلى ما

---

[١] - ص١٧ ج٢ الكبريت الأحمر
[٢] - ص١٦٦ ج١ الإبريز
[٣] - ص١٦٦ نفسه

هنالك كان وجودهما، ولا غيب حينئذ إلا مزاعمهم التي لا بد أن تتشيأ في الوجود، وربما أن مثل هذه الفكرة هي التي دفعت الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى القول: "لا يقولن أحدكم متى تقوم الساعة، فإنه إذا مات قامت قيامته"[١]، وهذا بالطبع نفي لخبر غيبي يقول بالقيامة العامة لكل البشر.

[١] - ص٣٤٣ الفتح الرباني

- صفات الولي ومميزاته:

مما يتميز به الولي الصوفي، أن البشارة بولايته تسبق ولادته، وقد روى الشيخ العربي الفشتالي بخبر نبوي كما يزعم بولاية الدباغ قبل أن ولد، وفي ذلك يقول: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: إنه سيزيد ولي كبير عند ابنة اختك، فقلت: يا رسول الله، ومن أبوه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أبوه مسعود الدباغ"[١]، وكان أن خطب مسعود إلى ابنة اخته طمعاً في الولي المنتظر.

الولاية قد تكون بالفطرة التي تساوي بمعناها للاصطفاء، فقد "نظر "الدباغ" مرة إلى صبي فقال لي: انظر إلى نور الولاية، انظر إلى حلاوة وجهه، انظر إلى الولاية في ذاته فإنها لا تخفى على أحد"[٢]، وليس هذا فحسب، بل إن للشبربلي هرة لها إدراك الولاية فيمن وجدت فيه سماتها، فقد كان يقول: "لهذه الهرة تمييز لأولياء الله"[٣]، والشيخ نجم الدين الكبري في كتابه "فوائح الجمال" يرى أن "من علامات الولي أن يكون محفوظاً مقبول الدعوة من الله عز وجل وأن يعرف اسم الله الأعظم وأسماء الجن والملائكة ويرى أن مسلك السالك لا يصل إلى الولاية إلا عندما يُعطى "كن" وهي كلمة التكوين"[٤]، والشيخ روزبهان بقلي في كتابه "مشرب

---

[١] - ص٤١ ج١ الإبريز
[٢] - ص٣١٦ – ٣١٧ ج٢ نفسه
[٣] - ص٥٤ روح القدس في محاسبة النفس
[٤] - ص١٨١ مجلة التراث العربي، ٣٨ – ٣٩ – ١٩٨١

الأرواح" يخاطب ربه قائلاً: "رب لم لا تكلمني كما كلمت موسى؟ فأجابه: ألا يكفيك أن من يحبك فقد أحبني وأن من يراك يراني؟"[1]، ومن شرط الولاية عند الشعراني أن "يجتمع مع الخضر، وأن يصلي في مكة"[2]، ولو كان أينما كان، واعلم أيضاً أن "آخر صفات الولي الشفاعة"[3]، وبالطبع الشفاعة العامة!

للواصلين في التصوف كما هو معروف مراتب ودرجات أدناها فوق رتبة الرسالة والنبوة، وهؤلاء "منهم من يرى السماوات وأفلاكها- ومنهم من يرى اللوح المحفوظ ويقرأ فيه، ومنهم من له سماع صرير الأقلام وأصوات الملائكة والجان، ومنهم – من له منطق الطير –"[4].

أما الأبدال، فيتميزون بالحضور في أكثر من موضع، والشيخ عبد القادر الجيلاني مثلاً، كان "يحضر في أربعين مجلساً في نفس الوقت"[5]، ومسكن الأبدال كما يقولون "في الشام"[6].

والنقباء "هم الذين نقبوا الكون، وخرجوا إلى شهود المكوِّن سبحانه"[1]، ومن صفاتهم أن "كل نقيب عالم بخاصية برج- واستخراج خبايا النفوس"[2].

---

[1] - ص١٨٢ نفسه
[2] - ص١٠ ج٢ الإبريز
[3] - ص٢٩٠ التصوف الثورة الروحية في الإسلام
[4] - ص١١ ج١ الإبريز
[5] - ص١١ نفسه
[6] - ص١٢ نفسه

أما النجباء، فمسكنهم مصر أو الكوفة أو اليمن، ومقامهم الكرسي، وهم قائمون بإصلاح أمور الخلق.

والأوتاد هم كالجبال، راسخون في معرفة الله- مسكنهم زوايا الأرض- يمسك الله بهم العالم، أحدهم يحفظ الله به المشرق والآخر المغرب والثالث الجنوب والرابع الشمال- القطب منهم لا يموت"[٣].

أما الأفراد أو الكروبيون فهم المعتكفون في حضرة الحق سبحانه، والقطب واحداً من هؤلاء، فهو الخليفة الباطن سيد أهل زمانه، وهو القائم بحق الكون والمكوِّن سبحانه، و"لكل بلد قطباً موكلاً بها"[٤].

والغوث أو قطب الأقطاب، أو قطب العالم، هو قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات في عالمي الغيب والشهادة، وهو موضع نظر الحق"[٥].

وإن قلت: أين الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه المقامات؟ فسوف تراهم يقولون: إن القطبية الكبرى هي له صلى الله عليه وسلم، وهو بذلك قطب الأقطاب، ولكن إلى "٢٣ سنة"[٦]، وبعدها إلى الورثة!!

---

[١] - ص١٢ نفسه
[٢] - ص١٣ نفسه
[٣] - ص١٣ نفسه
[٤] - ص١٤ نفسه
[٥] - ص١٤ نفسه
[٦] - ص١٥ ج٢ الإبريز

ومن علامات القطب عند الشاذلي خمسة عشر علامة: أن يُمد بمدد العصمة والرحمة والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويُكشف له حقيقة الذات وإحاطة الصفات ويُكرم بكرامة الحلم والفضل-. وعلم الإحاطة بكل علم ومعلوم"[١]، ومن شروطه أيضاً: أن يحصل معاني الحروف التي في أوائل السور المقطعة مثل ألم، ألمص"[٢]، والقطب عند ابن عربي هو "مرآة الحق تعالى ومجلى النعوت المقدسة-. وصاحب علم سر القدر، وله علم دهر الدهور-. كثير النكاح-. تأتيه الأرواح في أحسن الصور"[٣]، فالقطب "هو الرجل الكامل الذي حصل الأربعة دنانير-. الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنون"[٤].

وبالإجمال فسمات الأولياء في التصوف ذات مناحٍ ثلاثة رئيسية وكلها إلهية:

الأول: عرفاني إلى حد المساواة في المعرفة بين الله عز وجل والولي.

الثاني: إرادي يتعلق بخوارقه وقدراته الإلهية التي لا مستحيل أمامها أو أمام "كن" التي يملكها الولي.

---

[١] - ص٧٨ ج٢ م٤٥ اليواقيت والجواهر
[٢] - ص٧٨ نفسه
[٣] - ص٧٨ نفسه
[٤] - ص٧٩ نفسه

الثالث: وجودي سواء بوجوده المبشَّر به أو بحفظه للوجود أو بكونه نائباً عن الله وخليفة له في كل ما تميز به سبحانه من صفات وإرادة مطلقة.

فللأولياء كل العلم أنى اتجهت بالعلم، وأنى اتجهت بموضوعه ولا مجهول أمام إدراكهم، ولهم كل القدرة وما يشاءه الواحد منه يكون، فهم محور الكون الذي لا قيام له دونهم أو دون وجودهم، إلا أنهم اختلفوا في تحديد الولي بالضبط، حتى صار الزاعمون للولاية أعظم من الحصر، وعندما اجتهدوا لصنع القالب الذي يزنون به الولي الصادق من الكاذب، كان تهافتهم الذي لمسنا قمته عند البحث في صراع الأولياء، الذي نهايته التقاذف بالشيطان، والتلاعن بالرجس، ولما بحثوا عن خاتم للولاية مضاهأة لخاتم النبوة، كثر الزاعمون لهذا المنصب الجديد، ومع حيرتهم بمن يكون وتلاعنهم، قام الحكيم الترمذي بقصد تأجيل التلاعن بوضع مجموعة من الأسئلة عددها مائة وسبع وخمسون، لتكون الإجابة عليها ميزاناً لتحديد خاتم الأولياء الصادق، ومضت الأيام ولا مجيب عليها، إلى أن جاء ابن عربي كما زعم، ففضَّ اللغز وربح التحدي ونجح في الامتحان حتى جعل من نفسه الخاتم الذي انتظروه طويلاً.

- الولاية والنبوة عند ابن عربي:

- **ابن عربي وحسد النبوة:**

الصوفي كما رأينا، يحسد النبي والرسول حسداً عظيماً، وابن عربيي قد أفصح صراحة عما في قلبه من الحسد، ليقول: لقد "ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول ولا نبي-. فهذا الحديث من أشد ما جرعت الأنبياء مرارته-. ومقام الرسالة لا يناله أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم-. ولهذا اشتد علينا غلق هذا الباب"[1]، وأن قوله صلى الله عليه وسلم: "فلا نبي بعده-. هذا الحديث قصم ظهور أولياء الله"[2].

ولما امتد حسده، ليشمل كثرة الأتباع للنبي مقارنة بانعدام أتباع الأولياء، اتهم الأنبياء بالاحتيال والتلبيس على العوام والجهلة، حتى كان لهم كثرة أتباعهم، ولو طلب الولي كثرة الأتباع، لأفشى ما لديه من أسرار، ولكنه كما يقول "لا يعلم هل يرضي إذاعة تلك الأسرار ربه أم لا"[3].

وبالحسد استصغر النبي وصحابته، وفي واقعة له يقول: "أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان رضي الله عنه، آمراً بالكلام في المنام-. وقرَّب المنبر الأسنى وصعدتُ عليه-. ورسول الله صلى الله عليه

---

[1] - ص٢٢٩ ج١ بـ٣٨ الفتوحات المكية
[2] - ص١٣٥ ج١ فصوص الحكم
[3] - ص١٦٠ ج٢ بـ١٧٨ نفسه

وسلم عن يمين المنبر قاعد"[1]. وبهذا جعل من عثمان خادماً له والرسول مستمعاً لكلامه. ولما امتد أكثر في حسده راح يستصغر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فمحمد كما يقول عظيم إن نظرت إليه عبر السراب، وإذا ما زال السراب بالحقيقة تضاءل "تضاؤل السراب"[2]، ولولا ضآلته الناتجة عن عدم معرفته بالله ما قال تعالى: "معلماً ومؤدباً، لمن عظَّم صفة الله على غير ميزان: عبس وتولى أن جاءه الأعمى"[3].

وبعد أن حلَّ حزن الحسد على ابن عربي، راح يبحث عن دروب العزاء، التي ينفس بها عما ألمَّ به من كرب، ليقول: "وأما النبوة "فقد حصل لنا منه صلى الله عليه وسلم، شعرة وهذا كثير"[4]، ولما رأى النبي في واقعة له، قال النبي: إن فيك شعرة مني ولا صبر لها عني، هي السلطانة في ذاتيتك"[5]، وهذه الشعرة كما يقول ابن عربي، هي "باطن النبوة، وهي الشعرة التي فينا من الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يكون الإرث"[6]، وبهذا الإرث أرسله الحق حافظاً لحرمة الشريعة وبعثه"[7]، أي: بعثه الله أو أرسله لنصح العباد، يقول: "فخاطبني سبحانه على الخصوص من غير واسطة غير مرة بمكة ودمشق، فقال لي: انصح

[1] - ص١١١ ج١ بـ٢ الفتوحات المكية
[2] - ص١٢٨ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[3] - ص٢١٩ ج٣ بـ٣٥١ نفسه
[4] - ص٢٣٠ ج١ بـ٣٨ نفسه
[5] - ص٣ ج١ نفسه
[6] - ص١٠٦ ج١ بـ٥ نفسه
[7] - ص٣ ج١ نفسه

عبادي"[1]، "فالأولياء هم ولاة الحق على عباده"[2]، ومنهم تؤخذ الحقائق، وكما أرسل الله محمد بالظاهر، أو بنبوة التشريع، أرسله بالباطن أو بنبوة الولاية التي لا انقطاع لها.

ولما فكر وفكر، قال: ما أنا بالحسود للنبي صلى الله عليه وسلم، بل هو الذي سيغبطني لمقامي، وما أنا عليه من الراحة، فالولي وتلك هي سنة الله "يغبطه الرسول والنبي، لما يناله الرسول والنبي من مشقة الرسالة والنبوة لأنها تكليف"[3].

ولما شعر بالحسد لكثرة أتباع الأنبياء، مقارنة بأتباع الأولياء، قال: وما نفع الكثرة للنبي إن كانت سبباً لآلامه التي لا تحتمل كالمشقة التي يعانيها من تكليف دعوة الخلق إليه في الدنيا، والفزع الأكبر على أمته ونفسه في الآخرة؟ بينما الأولياء في راحة من ذلك كله، لأنهم كما يقول: "ليسوا بأنبياء تشريع، لكنهم أنبياء علم وسلوك"[4]، ولهذا فلا سعي لهم لكثرة الأتباع "لغناهم عن نفوسهم" وإن خيِّروا "ولا بد فيختارون الستر عن الخلق والانقطاع إلى الله"[5]، أما السبب الآخر، فهو حسد الفقهاء وأصحاب الرسوم، الجاهلون للذوق والكشف للأولياء، حتى صار

---

[1] - ص١١٧ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[2] - ص١٤ ج٣ بـ٣١٣ الفتوحات المكية
[3] - ص١٢٣ ج٢ بـ٤٨٧ نفسه
[4] - ص١٢٥ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[5] - ص١٨١ ج١ بـ٢٣ نفسه

"أصحابنا اليوم يجدون غاية الألم، حيث لا يقدرون يرسلون ما ينبغي أن يرسل عليه سبحانه، كما أرسلت الأنبياء. حسداً من عند أنفسهم"[1]. وهو حزين أيضاً لما يعانيه من عدم إنصاف الخلق للأولياء، واعلم كما يقول بأن هناك "أموراً كثيرة ترد في الكشف عن الأولياء لا تقبلها العقول وترمي بها، فإذا قالها الرسول أو النبي، قُبلت إيماناً. بينما إن جاء بها الولي كُفِّر، فما أعمى بصيرتهم"[2]. وبعمى بصيرة الخلق، كانت قلة أتباع الأولياء! وإن كان ولا بد من المباهاة بالكثرة، فاعلموا أن عدد الأولياء، وهذا هو المهم، أعظم كثيراً من عدد الأنبياء بما لا مقارنة بينهما، وبزعم ابن عربي "لا بد أن يكون في كل عصر مئة ألف وأربعة وعشرون ألف ولي، "زيادة" على عدد الأنبياء، ويزيدون ولا ينقصون"[3]!!

ولما حسد مقام صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، راح يبحث عن مكان له بينهم، وبعد أن استعان بالحقيقة المحمدية لجعل عيسى عليه السلام من الصحابة، أو حتى صار "عيسى عليه السلام صاحباً وتابعاً"[4]، قال: "رأيت جميع الرسل والأنبياء كلهم مشاهدة عين، وكلمت منهم هوداً. وصاحب إبراهيم الخليل. وعيسى. وموسى. وهود. وعاشرت من الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وإبراهيم وموسى وعيسى وهوداً

[1] - ص٢٧٢ ج١ بـ٥٠ الفتوحات المكية
[2] - ص٨ ج٣ بـ٣٠١ نفسه
[3] - ص١٠٨ ج٣ بـ١٤٩ نفسه
[4] - ص١٨٤ – ١٨٥ ج١ بـ ٢٤ نفسه

وداود، وما بقي فرؤية لا صحبة"[1]. وأخيراً قال: "فنحن الإخوان وهم الأصحاب"[2]، وبالتالي فالأولياء في أخوَّتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، أفضل من صحبة صحابته، ومن أجل تفضيل أهل التصوف على الصحابة بإطلاق، ومضاهأة لقول الرسول: "خير القرون قرني"، قال: "العالم اليوم كله نائم ومن ساعة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم-. ولما كان تجلِّي الحق، في الثلث الأخير من الليل-. كان علم آخر هذه الأمة أتم من علم وسطها وأولها-. حيث أخذناه من تجلي هذه الليلة المباركة"[3]. وبزعمه هذا انتصر لأهل التصوف على الصحابة والتابعين في مقامهم وعلومهم.

[1] - ص٧٧ ج٤ بـ٤٦٣ نفسه
[2] - ص١٠٩ ج١ بـ٥ نفسه
[3] - ص١٨٨ ج٣ بـ٣٤١ نفسه

- النبوة والملكات عند ابن عربي:

ابن عربي يرى هو الآخر، وحدة المنهج بين الأولياء والأنبياء والسحرة باكتساب النبوة بالرياضات، والمتريِّض أو السالك "إذا وصل – كما يقول – إلى الباب، يكون بحسب ما يخرج له في توقيعه. فمن الناس من يخرج له توقيع بالولاية، ومنهم من يخرج له توقيع بالنبوة والرسالة، وبالرسالة والخلافة"[1]، ولكل منهم حسب درجة الجهد الذي بذله في رياضاته، ومن طرائف الرياضات أن يكون المريد أمياً ليكون له الكشف المشروط بسلامة القلب، يقول: "فإذا سلم القلب من آفة العلم النظري كالفقه والحديث والمنطق والرياضيات. كان أمياً، وكان قابلاً للفتح الإلهي"[2]، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وبما للنحل من نصيب في الوحي، لبَّد رأسه بالعسل، فـ "صحَّت المناسبة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم"[3]. وبهذا وغيره من الرياضات كان له حيازة القوى التي للأنبياء!

وبالنتيجة: لقد اتبع ابن عربي الفلاسفة في زعمهم لوجود القوى النفسية التي بها يكتسب الولي والنبي العلم بلا معلم، وإحداث المعجزات والتخييل، ليقول: "فقوى الأنبياء التي وهبهم الحق سبحانه وتعالى لم

[1] - ص٢٧٢ ج٢ بـ١٦٧ الفتوحات المكية
[2] - ص٦٤٤ ج٢ بـ٢٨٩ نفسه
[3] - ص٧٣٨ ج١ بـ٧٢ نفسه

يعطها غيرهم"[1]، ولهذا فالنبي أقوى بهمته من الساحر، ولا فرق بينهما إلا في الدرجة، وعن همة النبي القوية، عرض علينا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم بهمته، ففي غزوة تبوك، رأوا – أي الصحابة – شخصاً فلم يعرفوه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا ذر. فإذا هو أبو ذر"[2]. فالنبي حسب زعمه خلق أبا ذر، خلقاً جديداً، وهو تفسيره لقول الله عز وجل: "بل هم في لبس من خلق جديد"! وعن قوة اكتساب العلم يقول: هي "قوة يوجدها الله في بعض عباده من رسول ونبي وولي، تعطي خلاف ما أعطته قوة العقل"[3]، وهذا يعني أن النبي لم يأخذه علمه من الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام.

---

[1] - ص٨٠ مواقع النجوم

[2] - ص١٢٦ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية

[3] - ص١٦٨ ج٤ بـ٥٢٥ نفسه

- جبريل والنبي عند ابن عربي:

ابن عربي يعتقد بأن الملائكة هي صورة الأعمال الخيِّرة، والأرواح الشريرة أو الشياطين هي صورة الأعمال الشريرة، "واعلم – كما يقول – أنه ما من كلمة يتكلم بها العبد إلا ويخلق الله من تلك الكلمة ملكاً، فإن كانت خيراً كان ملك رحمة، وإن كانت شراً كان ملك نقمة"[١] أو شيطاناً. وبالنكاح أيضاً تولد الملائكة "فإذا أقيم العبد في هذا المقام، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة ونكح الرجل من حيث روحه زوجه من حيث روحها، يتولد بينهما من ذلك النكاح أولاد روحانيون- فيخرج الأولاد ملائكة كراماً لا بل أرواحاً مطهرة"[٢]، وبالبرِ "فكل مصلٍ إمام للملائكة، والملائكة خلفه تسجد له"[٣]. كما سجدت لآدم، وبقصده حتى لا يكون وجودها محدوداً بآدم.

وكمثل عن الخلق بالمخيلة، استشهد بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي خلق البراق من صور أعماله، حيث "هيأ له – أو لنفسه – من عمله مركباً ذلولاً غير جموح، برزخياً دون البغل وفوق الحمار، سماه براقاً، لأنه تولد من عالم الطبيعة، كما يولد البرق في عالم الجو"[٤]، أي: مما في

---

[١] - ص٩٣ ج٢ بـ٢٨٧ الفتوحات المكية
[٢] - ص٣٦١ ج٣ بـ٣٦٩ نفسه
[٣] - ص١٩٥ ج٣ بـ٣٤٧ نفسه
[٤] - ص٥٦٠ ج٣ بـ٣٩٧ نفسه

نفسه من المعاني، لأن "المعاني هي أصل الأشياء"[1]، ويقول عن نفسه: "لقد بلغ بي قوة الخيال أن كان حبي يجسد لي محبوبي من خارج لعيني، كما كان يتجسد جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا أقدر أنظر إليه ويخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه"[2].

ومن جهة أخرى فإن اعتقاد ابن عربي بتوحيد لا موجود إلا الله، وأن الله هو كل الموجود، عندها لا فرق ولا مسافة بين الله والنبي أو غيره، وبالتالي لا معنى لوجود جبريل كناقل للرسائل من الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول:

"فلم يبق إلا الحق لم يبق كائن   فما ثمَّ موصول وما ثمَّ بائن"[3]

وبياناً لعدم وجود الفرق النافي لنزول الملائكة وصعودها، يروي لنا مثلاً ميدانياً عما حدث معه، يقول: "فتهيأت للنزول – نزول الملاك – وورود الرسول-. فتجارت – أو وردت – الأملاك إليَّ، ودارت الأفلاك عليَّ، والكل ليميني مقبِّلون، وعلى حضرتي مقبلون-. وما رأيت ملكاً نزل ولا ملكاً عن الوقوف بين يدي انتقل، ولاحظتُ في بعض جوانبي، فرأيت صورة الأزل، فعلمتُ أن النزول محال"[4]، لأنه ما ثم إلا الله.

---

[1] - ص٦٧٧ ج٢ بـ٢٩٥ نفسه
[2] - ص٣٢٥ ج٢ بـ١٧٨ نفسه
[3] - ص٩٣ ج٢ فصوص الحكم
[4] - ص٥١ ج١ بـ١ الفتوحات المكية

ابن عربي لم ينكر وجود جبريل، إنما انحرف به عن الفرق والرسالة وإلى ما هنالك، وعند بحثه عن وجود جبريل، قال: المعاني هي أصل الأشياء، وجبريل ليس إلا معنى موجود في رأس النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا أراد النبي تجسيد هذا المعنى في العالم المحسوس ليراه الآخرون معه تصديقاً له، قامت مخيلته بهذه المهمة، ولتفسير هذا المصدر النفسي لجبريل والرسالة، يقول: إن الرسالة "أو الوحي معنى، فإذا أراد المعنى أن ينزل إلى الحس - ليتجسد – فلا بد أن يعبر على حضرة الخيال- والخيال يصوره في صورة المحسوس- فلهذا بُدئ الوحي بالخيال، ثم بعد ذلك انتقل الخيال إلى الملك – أو إلى تجسيده – من خارج، فكان يتمثل له الملك رجلاً أو شخصاً- وهذا كله موجود في رجال الله من الأولياء"[1]، وبمخيلة مريم عليها السلام جسدت جبريل في عالم الحس، فقال تعالى: "فتمثل لها بشراً سويا" وفي حضرة الخيال، أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم في صورة اللبن"[2]، "ومعلوم أن العلم ليس بجسم"[3]، وبتجسيد محمد صلى الله عليه وسلم العلم الذي هو معنى مجرد لا جسم له إلى جسم محسوس هو اللبن، كان لنا "الدليل –

---

[1] - ص٣٧٥ – ٣٧٦ ج٢ بـ١٨٨ الفتوحات المكية

[2] - ص٥٨ ج٢ بـ٧٢ نفسه

[3] - ص٦٦ ج٢ بـ٧٣ نفسه

كما يقول – على قبول ما أتى به من هذا القبيل"[1]، كتجسيده إلى جبريل وأبا ذر وغير ذلك.

وبالنتيجة: فجبريل إذن بزعمه ليس أكثر من حيلة اخترعها خيال محمد صلى الله عليه وسلم، ليخدع بها العوام والجهلة وبهذا وأمثاله صار له الأتباع الكثر، تماماً كما فعل سحرة فرعون مع موسى عليه السلام: "فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى". ولكن الساحر غير النبي.

---

[1] - ص٦٦ج٢ بـ٧٣ نفسه

- ابن عربي وطبيعة التشريع عند النبي:

بعد أن أنكر ابن عربي وجود جبريل كناقل للرسالة من الله إلى النبي، وبعد أن نسب وجوده إلى الخيال، راح يتكلم عن آلية التشريع عند النبي، ليقول عن مصدر التشريع عند الأنبياء: كلهم "ادعوا أن ذلك مما أوحي به إليهم"[١]، ولكن كيف يكون الوحي إن كان لا وحي إلا من خيالهم؟ ومحمد صلى الله عليه وسلم "عمره كله في الدنيا بتلك المثابة، إنما هو منام في منام، وكل ما ورد – عليه من الوحي – من هذا القبيل، فهو المسمى عالم الخيال، ولهذا يُعبَّر"[٢]. فالخيال كالمنام ولا حقيقة في المنام إلا بالتأويل فلا وحي إلا من نفسه صلى الله عليه وسلم، فمن شجرة نفسه جنى ثمرة غرسه"[٣]، وكل الأنبياء كذلك، لأنه لا وحي ولا رسالة من إله مفارق معدوم الوجود.

ولبيان مصدر التشريع البعيد عما يسمى الوحي، يقول: إنه المزاج، وما رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لكل الناس "إلا لكونه على مزاج عام- فهو أعدل الأمزجة"[٤]، والأنبياء على العموم، قد "اختلفت أحوالهم

[١] - ص٢١٢ ج٤ بـ٥٥٨ الفتوحات المكية
[٢] - ص٩٩ ج١ فصوص الحكم
[٣] - ص٩٤ ج٢ نفسه
[٤] - ص٢٥١ ج٣ بـ٣٥٥ الفتوحات المكية

في أدراك مطلوبهم لاختلاف أمزجتهم"[1]، أي: لا لاختلاف الرسالات من الله.

واعلم أن حاجة الأقوام، بطلبها لهذا التشريع دون ذاك، اختلفت الشرائع، وما وحي الأنبياء إلا ما رغبت به أقوامهم، "واعلم أن الرسل صلوات الله عليهم- على مراتب ما هي عليه أممهم، فما عندهم من العلم الذي أرسلوا به، إلا قدر ما تحتاج إليه أمة ذلك الرسول لا زائدة ولا ناقص"[2]. فلا رسالة ولا مرسل للأنبياء إلا أقوامهم لا أكثر ولا أقل، "وإن لم تفهم هكذا، وإلا ما فهمت الشريعة- ثم اعلم أن الشريعة أتت بلسان ما تواطأت عليه الأمة- وأسباب الأحكام دنيا وآخرة، معلومة عند العلماء بأسباب النزول"[3] التي حددت مصدر الوحي أو التشريع، بل وكل ما قاله عن العالم الآخر أو الآخرة من هذا الباب نفسه، بل ومحمد صلى الله عليه وسلم نفسه قد اعترف بذلك لما "قال: ألا هل بلَّغت، فأضاف التبليغ إليه، ولم يقل قد بلَّغ الله إليكم بلساني ما قد أُسمعكم"[4]. والحقيقة أنه هو سبحانه "الحجاب وهو الرسول وهو الوحي"[5] وما ثم إلا الله، "ثم أنه – أي محمد

[1] - ص٢٢٠ ج٢ بـ١٣٣ نفسه
[2] - ص١٣٢ ج١ فصوص الحكم
[3] - ص٥٦٢، ٢٦٢ ج٢ نفسه
[4] - ص١١٨ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
[5] - ص٤١١ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

– ما شرع لهم من الأحكام إلا ما كانوا عليه، فما زادهم إلا كونها من عند الله"[1]، أي: بنسبة تشريعه أو ما كانوا عليه من تشريع إلى الله!!

وطالما أن الأقوام هم مصدر التشريع والوحي لأنبيائهم بما تواطأوا عليه، وطالما وافق مزاجهم مزاجه، فلا مكان بعدها للصواب والخطأ والكل على صواب، ولا فاعل إلا الله، وبهذا "نزلت الشرائع تصوب نظر كل ناظر، ويتجلى سبحانه لأهل الكشوف، والكل أهل كشف"[2] حسب شرائع وحدة الوجود.

وإمعاناً في منح الصواب لكل المشرعين، أنبياء كانوا أو وضعيون، يقول: "الوحي العرفي- على نوعين: بدليل أنه من الله، وهو شرع الأنبياء، ومنه لا دليل عليه وهو الناموس الوضعي- وأن الله يصدِّق قول واضع الناموس الحكمي، كما هو مصدِّق واضع الناموس الشرعي الحكمي"[3]، "وكلا الطرفين صحيحان، لا يقدر على الطعن على أحدهما- وعذر الله كل طائفة"[4]، أي: إن هناك طريقان للتشريع، طريق الأنبياء الذين نسبوا وحيهم أو تشريعهم إلى الله، والوضعيون الذين أقروا بأنهم مصدر التشريع، كلاهما صحيح، وأن الإله راضٍ عن كليهما، والكل من تجلياته، وإن كان الله هو مجموع الكل، فلا فرق عندها بين هذا وذاك أو

---

[1] - ص٤٠٩ ج٣ بـ٣٧٠ نفسه
[2] - ص٢٢٠ ج٢ بـ١٣٣ نفسه
[3] - ص١١٧ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[4] - ص٣١٠ ج٣ بـ٣٦٣ نفسه

بين محمد صلى الله عليه وسلم وحمورابي. وكذلك قل مع ما قالوه من عقائد، فأصحاب العقائد في توحيدهم – مثلاً – على حسب ظنونهم، فمن اعتنى به – الله – حتى صيَّر ظنه علماً، فهو الرسول والنبي وبعض الأولياء، ومن تُرك مع ظنه، بلغه حيث ظن، لقوله: أنا عند ظن عبدي بي"[1]، فعقائد الأنبياء والرسل، كقولهم بالجنة والنار والتوحيد وإلى ما هنالك، لا مصدر لها إلا الظن، وما دور الله إلا أن صدَّقهم، حتى انتقلت ظنونهم بانتشارها لمستوى العلم.

ولما سئم من المناورة والمداورة واللف والدوران، استعان بالشعر لسان المكروب، ليقول:

"والشرعتان هما من أصل واحد ... ما لم يقل قال الإله لخلقه
فإذا يقول فإنها أحبولة ... نجم القرين بنجمها من أفقه
ليصدِّقوا ما قلدوا أفكارهم ... فهو الكذوب وإن أتاك بصدقه"[2]

وبناء عليه: فكل من قال بعقيدة أو شريعة مصدرها الله فهو محتال وكذوب! لا غرض له إلا كسب الأتباع!!

وأخيراً أفصح ابن عربي عن بدائله، بعد أن تنكر لما زعمه من دور لله في تصديق الأنبياء والرسل، ليقول:

---

[1] - ص١٧٣ مواقع النجوم
[2] - ص١٦٢ ج٢ بـ٨٨ الفتوحات المكية

"دع الظـن واعلـم أن للظـن آفـة وقوفـك حيـث الظـن والظـن مـتهم
فشـرّدِ وسـاويس الظـن بلمحـة من الكوكب العلـي إن كنـت تحتـرم
فـلا ظـن إلا مـا يقـال بقطعـه وإلا فنـار للجهالـة تُضـرم" [1]

أي: إذا أردت الخلاص من الظن وأصحابه، بما فيه من وسواس وأكاذيب وجهالة، فليس لك إلا نور كوكب وحدة الوجود، أو نور الكشف والذوق والتجلي وإلى ما هنالك من أسلحة وأساليب.

[1] - ص١٧٣ مواقع النجوم

- **ابن عربي واستمرار النبوة:**

وبعد أن فرَّغ ابن عربي النبوة من الصواب والصدق، واتهمها بالاحتيال والنقص، عاد تارة أخرى ليقول باستمرارها، وأن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا نبي بعدي"، لا يعني انقطاع النبوة بإطلاق، لأن النبوة أنواع: منها أنبياء التشريع ومنهم من تشريعهم لأنفسهم، ومنهم من تشريعهم لغيرهم، وهناك أنبياء الأولياء، انتهاء بالنبوة المطلقة أو العامة، ولا تشريع لهؤلاء.

بعض الأولياء وعلى رأسهم عبد القادر الجيلاني قد صرحوا بأن الولي أفضل من النبي، وبعضهم قد صرح باكتساب النبوة كالغزالي وآخرين كُثر، فنهض ابن عربي لمواراة سوءاتهم وتصحيح مسارهم، فقسم نبوة النبي إلى قسمين كما فعل كثر ممن قبله: النبي من حيث هو ولي، والنبي من حيث هو صاحب تشريع، ليقول: "فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع، فمن حيث هو ولي وعارف، ولهذا فإن مقامه من حيث هو عالم – أو ولي – أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع، فإذا سمعت أحد من أهل الله يقول، أو يُنقل إليك عنه أنه قال: الولاية أعلى من النبوة، فليس يريد ذلك العارف إلا ما ذكرناه"[١]، أي: الجيلاني يقصد ولاية النبي لا نبوته، وبالتالي فالجيلاني من حيث هو

---

[١] - ص١٣٥ ج١ فصوص الحكم

نبي من أنبياء الولاية أفضل من النبي من حيث هو ولي، أي إن ما يأتينا به الولي من عقائد، أفضل مما هو عند النبي من عقائد، ومن جهة أخرى، وطالما "كل رسول ولا بد أن يكون نبياً، وكل نبي لا بد أن يكون ولياً"[1] – كما يقول – فلا ضير من المفاضلة بين الأولياء، لاختلاف مقاماتهم، وبهذا قال الخضر لموسى عليهما السلام "علم علمنيه الله لا تعلمه أنت""[2].

وبعد أن قسم النبوة إلى قسمين: نبي ولاية ونبي تشريع، قال: إن قوله صلى الله عليه وسلم: "لا نبي بعدي" لا يعني انقطاع النبوة بإطلاق، إنما الذي انقطع أو الذي يعنيه هو نبوة التشريع لا غير، وبالتالي لا انقطاع لنبوة الولاية والنبوة مستمرة دنيا وآخرة.

---

[1] - ص٢٥٦ ج٢ بـ١٥٨ الفتوحات المكية

[2] - ص٩١ ج٢ بـ٧٣ نفسه

- براهين ابن عربي على استمرار النبوة:

لقد انشغل ابن عربي كثيراً في البحث عن البراهين التي تثبت له استمرار النبوة، أو لإثبات نبوة الأولياء وأهمها ما يلي:

* برهان الحقيقة: يقول: "الناس تكلموا في الشريعة والحقيقة – أو العقيدة والشريعة – قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم آمراً: "وقل رب زدني علماً"-. وهو علم الحقيقة، فما طلب الزيادة من علم الشريعة-. والشريعة تنقطع والحقيقة لها الدوام"[1].

أي: بما أنه لا توقف لطلب المزيد من المعرفة، فلا انقطاع لنبوة المعرفة أو الحقيقة، أما نبوة التشريع فهي المنقطعة.

* برهان الكشف: لما وصل ابن عربي في معراجه إلى خوخة الشرائع ونظر فيها، قال: "على ما كُشف لنا فالنبوة العامة – نبوة الولاية – لا تشريع معها – فهي مستمرة – والنبوة الخاصة نبوة الشرائع فبابها مُغلق-. إنه – أي محمد – خاتم نبوة التشريع"[2].

أي: نبوة التشريع هي التي انقطعت دون النبوة العامة، نبوة الحقيقة أو نبوة الأولياء.

---

[1] - ص١٥١ ج٣ بـ٣٣٩ نفسه

[2] - ص٥١٣ ج٣ بـ٣٨٢ نفسه

* برهان المقام: بعد أن قسم نبوة التشريع إلى قسمين: مقام وتشريع، قال: "النبوة التي انقطعت، إنما هي نبوة التشريع لا مقامها- أي لا نبي بعدي يكون على شرع يخالف شرعي-. وهو المراد بقولهم – أي الأولياء – أن النبوة مكتسبة-. فإذا وقفتم على كلام أحد من أهل الله، يشير بكلامه إلى اكتساب النبوة، كأبي حامد الغزالي وغيره، فليس مرادهم سوى ما ذكرنا-. فالنبوة مقام عند الله يناله البشر"[١].

وبالتالي إن طلب الغزالي اكتساب النبوة، أو كسب مقام نبي الولاية لا ضير عليه طالما لم يقصد كسب نبوة التشريع، ولا ليأتي بشرع يخالف شرع النبي، وبالنتيجة لا انقطاع لمقام النبوة أو لنبوة الولاية.

* برهان الوحي: يقول ابن عربي: النبوة سارية إلى يوم القيامة في الخلق، وإن كان التشريع قد انقطع، فالتشريع جزء من أجزاء النبوة، فإنه يستحيل أن ينقطع خبر الله، إذ لو انقطع لم يبق للعالم غذاء يتغذى به في بقاء وجوده"[٢]، وعلى نفس المنوال يقول عن نبوة الباطن نبوة الأولياء: فلا "تزال في الدنيا والآخرة، لأن الوحي الإلهي والإنزال الرباني لا ينقطع إذ كان به حفظ العالم، فجميع العالم لهم منه نصيب، مثل قوله: وأوحى ربك إلى النحل، وقالت نملة يا أيها النحل"[٣]. أي: بما أن حفظ

[١] - ص٣ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[٢] - ص٩٠ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[٣] - ص٢٨٥ – ٢٨٦ ج٣ بـ٣٦٠ نفسه

العالم بالوحي على حفظته الأولياء، وطالما لا وحي دون نبوة، فالنبوة مستمرة، وهي مستمرة طالما لله أو للعالم وجود، ولا انقطاع إلا لنبوة التشريع.

* برهان البدعة: يقول: "فالولي لا يأمر أبداً بعلم فيه تشريع ناسخ لشرعه صلى الله عليه وسلم- ولكن قد يُلهم لترتيب صورة لا عين لها في الشرع- وقد قال صلى الله عليه وسلم: من سنَّ سنة حسنة كان له أجرها- فهذا حظ الولي من النبوة- وهو جزء من أجزاء النبوة كما هي المبشرة من أجزاء النبوة"[١].

* برهان المبشرات: يقول ابن عربي: قد قال صلى الله عليه وسلم، أن الرسالة والنبوة قد انقطعت، وما انقطعت إلا من وجه خاص، انقطع منها مسمى النبي والرسول ولذلك قال: فلا رسول بعدي ولا نبي، ثم أبقى منها المبشرات"[٢]. فالمبشرات "هي التي أبقى الله على المسلمين، وهي من أجزاء النبوة، فما ارتفعت النبوة بالكلية- فعلمنا أن قوله لا نبي بعده، أي: لا شرع بعده، لا أنه لا يكون بعده نبي"[٣]، ولهذا فـ"العبد العارف لا يبالي ما فاته من النبوة مع بقاء المبشرات عليه"[٤].

[١] - ص٥٦ ج٣ بـ٣١٤ نفسه
[٢] - ص٢٥٢ ج٢ بـ١٥٥ نفسه
[٣] - ص٥٨ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[٤] - ص٨٦ ج٣ بـ٣٢٣ نفسه

* برهان الاجتهاد: يقول: "إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قرر حكم المجتهد، لا يزال حكم الشرع ينزل من الله على قلوب المجتهدين إلى انقضاء الدنيا"[1]، "فالمجتهد ما حكم إلا بما أراه الله في اجتهاده، فهذه نفحات من نفحات التشريع، ما هو عين التشريع، فلآل محمد صلى الله عليه وسلم وهم المؤمنون من أمته، العلماء، مرتبة النبوة عند الله"[2]، فالاجتهاد نبوة: "هي النبوة"[3]، ولكن لا يجوز أن يقال: في المجتهد أنه نبي أو رسول"[4]، ولكن له "علم نسخ الأحكام بعد النبي صلى الله عليه وسلم، عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه المقرِّر حكم المجتهد"[5]، أما نسخ الشريعة، فهذا ليس له، لأن النبي لم يقرر ذلك وإلا لكان للمجتهد نسخ شريعته بعده:

"هي النبوة إلا أنها قصرت عن نسخ شرع وهذ رتبة عليا"[6]

وبالنتيجة: ما دامت أحكام الله تنزل على قلوب المجتهد وطالما لا انقطاع للمجتهد، فالنبوة مستمرة حتى يوم القيامة.

---

[1] - ص١٦٩ ج٤ بـ٥٢٥ نفسه
[2] - ص٥٤٥ ج١ بـ٦٩ نفسه
[3] - ص٣٧٥ ج٢ بـ١٨٨ نفسه
[4] - ص٢٥٣ ج٢ بـ١٥٥ نفسه
[5] - ص١٤٠ ج٣ بـ٣٣٦ نفسه
[6] - ص٣٥٧ ج٢ بـ١٨٨ نفسه

* برهان حفظة القرآن: يقول: إن "النبي صلى الله عليه وسلم قد قال فيمن حفظ القرآن أن النبوة قد أدرجت بين جنبيه"[1]، وهي "له غيب"، وهي للنبي شهادة، فهذا هو الفرقان بين النبي والولي في النبوة، فيقال فيه نبي ويقال في الولي وارث"[2].

* برهان الوراثة: يقول ابن عربي: وأما النبوة "فقد حصل لنا منه صلى الله عليه وسلم شعرة، وهذا كثير"[3]، وفي واقعة له مع الرسول، قال له الرسول: "فإن فيك شعرة مني، لا صبر لها عني، هي السلطانة في ذاتيتك"[4]، وللتعريف بطبيعة هذه الشعرة، قال ابن عربي: هي "باطن النبوة، وهي الشعرة التي فينا من الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يكون الورث"[5]، وعن مقام الشعرة، يقول: هذا المقام المحمدي الأطهر، من رقي فيه، فقد ورثه، وأرسله الحق حافظاً لحق، حافظاً لحرمة الشريعة وبعثه"[6] بالتأويل كما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالتنزيل.

وهناك طريقاً آخر لوراثة الولي للنبوة من النبي، "فالولي لا يأخذ النبوة – نبوة الولاية – إلا بعد أن يرثها الحق منهم، ثم يلقيها إلى الولي، حتى ينتسب في ذلك – علم الولي – إلى الله لا إلى غيره. ولهذا قال أبو

[1] - ص٢٥٣ ج٢ بـ١٥٥ نفسه
[2] - ص٢٥٣ ج٢ بـ١٥٥ نفسه
[3] - ص٢٣٠ ج١ بـ٣٨ نفسه
[4] - ص٣ ج١ نفسه
[5] - ص١٠٦ ج١ بـ٥ نفسه
[6] - ص٣ ج١ بـ٥ نفسه

يزيد: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت"[1].

وبوراثة الأنبياء لنبوة الولاية التي للنبي أو اكتسابها، أصبحوا في حلٍ من الالتزام بما للنبي من عقائد، أما نبوة التشريع، يقول ابن عربي: "حتى أن الوارث لو أتى بشرع، ما قبلته منه الأمة، فلا فائدة لظهور الحال إذا لم يكن القبول"[2]، وبما له من حال، فلا اكتراث له إن وافق اعتقاده وسلوكه محمد صلى الله عليه وسلم أو خالفه.

[1] - ص٢٥٣ ج٢ بـ١٥٠ نفسه
[2] - ص٤٨٨ ج٣ بـ٣٧٣ الفتوحات المكية

- براهين أفضلية الولي على النبي عند ابن عربي:

إن المقارنة ما بين النبي والولي في الفكر الصوفي هي النواة لكل أفكارهم ففيها كان لهم تبرير سلوكهم غير المرضي عنه بالشرع، وبها كان تحررهم من العقائد التي قررتها النبوة، لطرح ما رأوه من العقائد الحقيقة.

وكمقدمة لتفضيل الولاية على النبوة، كان كما رأينا من قبل قسمتهم النبوة إلى قسمين: ولاية وتشريع، ليقولوا: النبي من حيث هو ولي "أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع"[١]، وبناء عليه أصبح الولي على الإطلاق أفضل من النبي، وأصبح الأولياء هم ولاة الحق على عباده"[٢]، وبما أنهم ولاة الحق وأسوة بنبوة الولاية التي للنبي أصبحوا أنبياء، وطالما نبوة الولاية في النبي أفضل من نبوة التشريع عنده، أصبحوا هم أيضاً أفضل من نبوة التشريع، بل وأفضل من نبوة ولايته صلى الله عليه وسلم، وهذه هي دروبهم أو براهينهم:

* الراحة: يقول ابن عربي لبيان أفضلية الولي على النبي: الولي في راحة من تبليغ الرسالة، فهو منزَّه عما يلتبس بالتبليغ من ذنوب أو

---

١ - ص١٣٥ ج١ فصوص الحكم

٢ - ص١٤ ج٣ بـ٣٠٣ الفتوحات المكية

حجب، ولهذا أمر سبحانه النبي بالاستغفار "فسبح بحمد ربك واستغفره من أيام التبليغ إنه كان توابا""[١].

فالولي إذن أفضل عند الله من محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا أيضاً حرَّف ابن عربي الآية وزاد عليها.

* تفضيل الولاية على نبوة التشريع: يقول ابن عربي: الولاية "لا ترفع دنيا وآخرة. ومن أسمائه تعالى الولي، وليس من أسمائه نبي ولا رسول"[٢]، واعلم "أن الولاية هي الفلك المحيط العام، ولهذا لم تنقطع، ولها الإنباء العام، وأما نبوة التشريع والرسالة فمنقطعة"[٣]، "فالولاية نبوة عامة، والنبوة التي بها التشريع نبوة خاصة"[٤]، "والرسالة في البشر لا تكون إلا في الدنيا، وينقطع حكمها في الآخرة، وكذلك تنقطع في الآخرة. نبوة التشريع لا نبوة العامة"[٥]، "وأنبياء الأولياء وهي النبوة التي قلنا أنها لم تنقطع"[٦]، وإضافة لتفضيل أنبياء التصوف على نبوة التشريع فهم أيضاً قد أباحوا لأنفسهم التدخل في تشريع محمد صلى الله عليه وسلم، يقول ابن عربي عن لطف الله بأهل التصوف: "فأبقى لهم النبوة العامة التي لا

١ - ص١١٩ ج٢ بـ٧٣ نفسه
٢ - ص١٠١ ج٣ بـ٣٢٧ الفتوحات المكية، ص١٣٦، ١٣٧ ج١ فصوص الحكم
٣ - ص١٣٤ ج١ فصوص الحكم
٤ - ص٢٤ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
٥ - ص٢٥٧ ج٢ بـ١٥٨ نفسه
٦ - ص٥٣ ج٢ بـ٧٣ نفسه

تشريع فيها، وأبقى لهم التشريع في الاجتهاد- والوراثة في التشريع"[1]، والأفراد والمحدَّثون في نبوتهم، إن عارضوا شرع محمد، فلأنهم ما زالوا تابعين لرسول، قد شرع له ما شرع"[2].

وبالتالي فإن نبوة الأولياء المستمرة هي الأفضل من نبوة محمد التي انقطعت. ولكن ما المغزى من اتجاه أفضلية نبوة الولاية على نبوة التشريع؟ والولاية غير التشريع، دون ولاية النبوة، إنها لتتيح لهم التصرف في التشريع من جهة، وللتحرر من أحكامه من جهة أخرى، لأن السلوك واضح ومدرك للجميع ولهذا لم تتجه أفضليتهم على العقائد في ولاية النبوة، لأن عقائدهم التي خالفوا بنها عقائد نبوة الولاية من أسرارهم التي لا تحكى، وإن أعلنوها فلا إدراك لها إلا لمن تعمد الكشف عنها.

* هيمنة الولي على الشرع: يقول ابن عربي لبيان علاقة الولي الصوفي مع الوحي النبوي الخاص أو المحمدي بشقيه العقائدي والتشريعي: "فما وقف الولي المحمدي مع وحي خاص، إلا في الحكم والحلال والحرمة"[3]، ثم يقول: إلا بما شهد الكشف بصحته أو بـ"تعريف إلهي ومزيد علم بالإله، أو تعريف بصدق حكم مشروع ثابت، أنه من عند الله لهذا النبي، وتعريف بفساد حكم قد ثبت بالنقل صحته عند علماء

---

[1] - ص١٣٥ ج١ فصوص الحكم
[2] - ص٧٩ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
[3] - ص١٦٧ ج٣ بـ٣٤٢ نفسه

الرسوم- أو صحة ما فسد عند أرباب النقل- وحكم التكاليف في الظاهر والباطن"[1]. وبهذا إن تم للنبي الصوفي، تكون له الهيمنة على العقيدة والشريعة، ولا حكم لنبي بعدها إلا لنبوته هو.

وعن الصوفي من حيث هو وارث لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، يقول ابن عربي: فالوارث الكامل من الأولياء منا من انقطع إلى الله- إلى أن فتح الله قلبه في فهم ما أنزل الله عز وجل على نبيه وجعله من المحدثين في هذه الأمة- فقام له هذا "الفهم" مقام الملك الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ردَّه الله إلى الخلق ليرشدهم، ويبين لهم مقاصد الشرع وما ثبت من الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما لم يثبت بإعلام من الله، وهو الذي أشركه الله تعالى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصفة التي يدعو بها إلى الله- فكمال الورث النبوي الرسالي في الرجوع إلى الخلق"[2].

أي: جبريل = الفهم + التحديث + الفتح

: الولي = شريك للنبي = الرسول

[1] - ص٢٥٤ ج٢ بـ ٢٥٦ الفتوحات المكية

[2] - ص٢٥١ ج١ بـ٤٥ نفسه

ولهذا كله يقول ابن عربي مخاطباً الصوفي الوارث لمحمد صلى الله عليه وسلم: "لا تتبع إلا ما نزل به الوحي إليك"[1]. ولكن كما نرى قد عاد التشريع مع الرسول الصوفي الجديد، وبهذا يكون عدم انقطاع نبوة التشريع، إلا على التحديد بالتشريع المحمدي، وليس عندها إلا استمرار النبوة أو النسخ! والحقيقة كما يقول ليس هناك ما هو أيسر على الصوفي من نيل نبوة التشريع، فمن له مقام منزل الألفة الذي فيه علم الشرائع ومن أين تؤخذ، "إن صاحب هذا الكشف، لو لم يكن مؤيداً في كشفه، لادعى النبوة"[2]، أي: ولا أيسر عليه من زعم اكتساب نبوة التشريع!!

وعن وحدة المصدر لنبوة التشريع، عند محمد صلى الله عليه وسلم، والنبي الصوفي يقول ابن عربي:

"ويفترق الصنفان عند رجوعهم — من المشهد الأعلى إلى عالم الترب
فيظهر هذا بالرسالة واضعاً — حدوداً وأحكاماً عن الروح والرب
وذلك مأمور بستر مقامه — وإن كان قد داناه في الذوق والشرب"[3]

فمحمد صلى الله عليه وسلم إذن من أهل الكشف والذوق، وبهما كانت المساواة بينهما! ولكني كما أرى أن النبي الصوفي قد عاد من المشهد الأعلى ومن مقام الفهم والتحديث والفتح رسولاً يدعو الخلق إلى

[1] - ص٣٩٨ ج٤ بـ٥٥٩ الفتوحات المكية
[2] - ص٦٠٥ ج٢ بـ٢٧٨ نفسه
[3] - ص٢٥٩ ج٢ بـ١٦٠ نفسه

ديانته بما لها من شريعة وحقيقة. وربما نسي برهان الأفضل براحته على النبي، حتى عاد إلى اجتراع الذنوب والموبقات تارة أخرى!

* الولي أعلم بالباطن من النبي فهو الأفضل: الولي الصوفي بمقارنة النبي بأحواله يصل إلى درجة يسخِّف بها كل الأنبياء، وكلهم بزعمه على جهل ونفاق لا نظير له، يقول ابن عربي: "الفرق بين الولي والرسول أو النبي، أن الولي يعلم العلم الباطن ويدرك أنه يعلمه، في حين أن النبي والرسول يعلمانه، ولكنها لا يدركان أنهما يعلمانه"[1]، "والسر أن الرسول يعمد إلى لسان الظاهر ولا يدرك غيره"[2].

فالنبي إذن إن علم الباطن وكتمه فهو منافق، وإن لم يعلمه فهو جاهل، وبالحالين فالولي هو الأفضل، وصدق الجيلاني، حيث قال: "معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا. "وابن عربي يقول: وأما قوله أوتينا ما لم تؤتوا، هو معنى قول الخضر. علم علمنيه الله لا تعلمه أنت"[3].

أي إن النبي مشكوك بعلمه، على عكس الولي الآخذ علمه من الله!

* الولي يعلم بالأجسام التي يجسدها الخيال، بما زوده الله من علامات غير موجودة عند غيره، يقول ابن عربي: "الأجساد المتخيلة.

---

[1] - ص٣٠٥ ج٢ فصوص الحكم
[2] - ص٣٠٦ نفسه
[3] - ص٩٠ – ٩١ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية

ما كل من يشهدها يفرق بينها وبين الأجسام الحقيقية-. ولهذا لم يعرف الصحابة جبريل حين نزل في صورة أعرابي-. وكذلك مريم "لم تعرفه" حين تمثل لها بشراً سويا، لأنه ما كانت عندها علامة في الأرواح إذا تجسدت-. فلا بد لمن اعتنى الله به من علامة يعرف تجلي الحق من تجلي الملك من تجلي الجان، من تجلي البشر"[1]. وكذلك النبي إبراهيم عليه السلام، لم يكن معتنى به من الله، حيث ذبح العجل للملائكة، ولو كان له علامة من الله لعرفهم، ولا خاف منهم أو ذبح لهم. ومن جهل إبراهيم الخليل بالباطن أو التأويل – حسب ابن عربي – قال لابنه: "إني أرى في المنام أني أذبحك"-. فلم يعبِّرها-. بل أخذ بظاهر ما رأى"[2] حتى كاد أن يذبحه، أما نوح فـ"لو أن نوحاً عليه السلام – كما يقول – جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه"[3]، أي: بين دعوة التشبيه ودعوة التنزيه، ولكنه مكر بهم "فأجابوه مكراً كما دعاهم"[4] مكراً. والرسل على الإجمال قد أخطأوا، لما دعوا إلى الله تعالى أممهم ظاهراً وباطناً، بدعوة واحدة"[5] لاعتمادهم واعتقادهم بوجود الفرق بين الخالق والمخلوق، وموسى صُعق ولم ير ربه، لضعفه عن تحمل التجلي، يقول: "فما أصعق الكليم إلا الذي دك الجيل العظيم-. وإن كان الإنسان أقوى من الجبال؟ ولا سيما إذا كان من

---

[1] - ص٣٣٣ ج٢ بـ١٧٨ الفتوحات المكية

[2] - ص٨٥ ج١ فصوص الحكم

[3] - ص٧٠ ج١ نفسه

[4] - ص٧٢ نفسه

[5] - ص٨٣ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية

الأبدال فافهم الأمر واكتم"[1]!! أي: أكتم ولا تصرِّح بأن الأبدال من أولياء التصوف أعظم وأقوى من موسى في تلقيهم للتجلي الإلهي، ويقول عن نفسه لما تجلى الله بجسده:

"مذ تألهتُ رجعت مظهراً وكذا كنت فبي فاعتصموا
أنا حبل الله في كونكم فالزموا الباب جميعاً واخدموا
ليس في الجبة شيء غير ما قاله الحلاج يوماً فأنعموا"[2]

أي: إن الله قد تجسد فيه حتى لم يعد في الجبة التي يرتديها على حد تعبير الحلاج إلا الله!

وبالنتيجة: إن الولي الآخذ علمه من الله مباشرة ودون وسائط، والذي له علم الباطن والتأويل، والذي هو أقوى من النبي في احتمال تجلي الله، والذي له علامات الكائنات المتخيلة من الله، والذي يتجلى الله بجسده، والذي له الاعتقاد بوحدة الوجود، هو الأفضل من الصحابة ومن مريم عليها السلام، ومن كل الأنبياء صلوات الله عليهم جميعاً.

* لا مكان للإيمان عند الولي، فهو الأفضل من النبي المؤمن: الإيمان بالتعريف، تصديق بالخبر، أو تصديق المخبر، وطالما لا يأخذ الولي معارفه إلا مباشرة من الله أو بالكشف والتجلي والعيان والذوق، فلا حاجة له إلى الوسائط كجبريل أو غيره من الأرواح، التي قد تصدق وقد

---

[1] - ص٣٧١ ج٤ بـ٥٥٩ الفتوحات المكية
[2] - ص٣٢٠ ج٢ بـ١٧٨ نفسه

تكذب، ولكن من الملاحظ أن ابن عربي هنا يقر بوجود جبريل كوجود منفصل عن تخييل محمد صلى الله عليه وسلم وتجسيده له، حتى تناسى أيضاً ما قاله عن مصدر الظن. يقول ابن عربي: العلم "من شرائط الولاية وليس من شرائطها الإيمان، فإن الإيمان مستنده الخبر، فلا يحتاج إليه"[١]. أي: إن الولي لا يحتاج إلى الأخبار المعرفية التي تأتيه بواسطة الوسطاء وبالتالي فلا حاجة له إلى الإيمان، ومن جهة أخرى فإن الإخبار يقصر عن إدراك ما لا يُنال إلا بالذوق، فلم يبق العلم الكامل إلا في التجلي الإلهي"[٢]، وهذا للأولياء أو لأنبياء التصوف، أما النبي فهو محصور "في قدرته على الإخبار بما هو في عالم الغيب"[٣]، والأنبياء يصدقون كل أخبار أتاها إليهم ما هب ودب من الأرواح، دون امتحان صدقهم فـ "الأنبياء أصحاب الشرائع صدِّيقون بخلاف أنبياء الولاية. لأن أهل هذا المقام لا يأخذون التشريع إلا عن الروح التي ينزل بها على قلوبهم، وهو تنزيل خبري، فلا يتلقونه إلا بصفة الإيمان. فهم صدِّيقون للأرواح التي تنزل عليه. لا من التجلي – الذي – لا يُعطي الإيمان بما يعطيه"[٤].

ومن هذا الفرق العظيم بين أنبياء الصوفية أصحاب التجلي وبين الأنبياء أصحاب الإيمان كان جثو الأنبياء بين يدي الأولياء، وفي هذا

١ - ص٥٢ ج٢ بـ٧٤ الفتوحات المكية
٢ - ص١٣٣ ج١ فصوص الحكم
٣ - ص١٧٦ ج٢ نفسه
٤ - ص٩١ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية

يقول ابن عربي: "فصاحب الشريعة، وهو المؤمن، إنما جثا بين يدي المحقق الذي هو صاحب الحقيقة ليبين له مأخذ كل شرع من الحضرة الإلهية، فلهذا أسمي هذا المنزل بجثو الشريعة بين يدي الحقيقة"[1].

وبالطبع إن من يجثو أقل قدراً ممن يجثو بين يديه ليكتسب العلم منه!!

* الولي يعرف سر القدر فهو الأفضل: سر القدر الذي منه توحيد لا فاعل إلا الله، ابن عربي وكل الأولياء كما يقول لهم علم به"[2]، أما الأنبياء والرسل فمطوي عنهم هذا العلم، "فإن علموه فما علموه من كونهم رسلاً، بل من كونهم من الراسخين في العلم"[3]، أو من حيث هم أولياء، أما من حيث يدعون الخلق إلى الشريعة، ذات الثواب والعقاب، "يكتمون علم مثل هذا وغيره"[4].

وبالتالي فإن من يكتم الحقيقة حيلة، لا يقارن بأفضلية صاحب الحقيقة الذي لا يحيد عنها.

* الولي له الوسيلة والشفاعة كالنبي – وبأدبه صار هو الأفضل: يقول ابن عربي: "الوسيلة- ساغ لنا أن نطلبها لأنفسنا ولكن يمنعنا من

---

[1] - ص١٥٣ ج٣ بـ٣٣٩ الفتوحات المكية
[2] - ص٦٣ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
[3] - ص٦٤ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[4] - ص٦٥ نفسه

ذلك الإيثار وحسن الأدب مع الله، في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم"[1].

- ملاحظة: لما أدرك ابن عربي أفضلية النبي على الولي من قول الغزالي "والشعراني"[2] بأن النبي يرى جبريل والولي لا يراه، أو لا نزول له على الأولياء، نزوله على الأنبياء، قال: "فهذا غلط ودليل على عدم ذوق القائلين به، وإنما الفرقان، إنما هو فيما ينزل به الملك لا في نزول الملك- فما طرأ على القائلين بخلاف هذا، إلا من اعتقادهم في نفوسهم، أنهم قد عمُّوا بسلوكهم جميع الطرق والمقامات- وما رأوا أنهم نزل عليهم ملك فاعتقدوا أن ذلك مما يختص به النبي"[3] دون الولي، "فالإلقاء بغير التشريع ليس بمحجور، والتعريفات الإلهية- لم تنقطع، وكذلك تنزُّل القرآن- ليكون لهم ذوق الإنزال"[4]، ولأولياء التصوف أو لأنبياء الولاية، تلقي الكتب السماوية، وهذا "يقع كثيراً للأولياء"[5]، والشعراني يقول: كعبد الله قضيب البان وبقى بن مخلد، وعلامة هذه الكتب على أنها من الله "أن

[1] - ص٩٧ ج٢ نفسه
[2] - ص٨٤ ج٢ م٤٦ اليواقيت والجواهر
[3] - ص٣١٦ ج٣ بـ ٣٦٤ الفتوحات المكية
[4] - ص٢٥٨ ج٢ بـ١٥٩ نفسه
[5] - ص٦٣٢ ج٢ بـ٥٨٥ نفسه

تلك الكتابة تُقرأ من كل ناحية على السواء"، لا تتغير كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها"[1].

وبهذا يكون رد الاعتبار للولي، ليكون مساوياً على الأقل للنبي في مسألتي نزول الملك والكتب الإلهية. مع ملاحظة أن الكتب تأتيه دفعة واحدة لا تحتاج إلى من يجمعها، ومزودة ببرهان صدقها!!

* العصمة والحفظ والفرق بين النبي والولي: النبي معصوم، وأسوة بالنبي، زعم المتصوفة حفظ أوليائهم، على معنى المساواة بين العصمة والحفظ، مع فرق أدبي بينهما. وللبرهان على عصمة أنبياء الولاية، استشهد التستري بحديث صحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول فيه: "إن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد"، ولما كان سجود الوجه لا معنى له بتوحيد ما ثم إلا الله، امتدوا بالسجود بعيداً عن التكاليف أو الوجه، ليكون من نصيب القلب، دونما تبرير أو دونما تبرير لارتباط هذا السجود بالعصمة أو الحفظ.

واستثماراً لهذا المصطلح، قال ابن عربي: إن القلب "إذا سجد لا يرفع أبداً، بخلاف سجود الوجه- هذه السجدة القلبية إذا حصلت للإنسان- فقد كمل وكملت معرفته وعصمته فلم يكن للشيطان عليه من سبيل، وتسمى هذه العصمة في حق الولي حفظاً- ليقع الفرق بين الولي

---

[1] - ص٨٣ ج٢ م٤٦ اليواقيت والجواهر

والنبي"[1]، ومن "سجد قلبه فلا دعوى له، فلا حساب ولا سؤال ولا عقاب"[2] عليه، حيث تحرر قلبه من قبضة مقلِّب القلوب!!

ولما كان لأهل الله ميزانهم الخاص بهم للحكم على سلوكهم وعقائدهم، قال ابن عربي: "الولي محفوظ في ميزانه، وإن كانت العامة تنسبه إلى الجور، وما هو بالجور إلا بالنظر إلى موازينهم حيث لم يوافقها"[3]. فإن رأيتم الولي يشرب الخمر مثلاً، فمن الخطأ أن تحكموا عليه بالشرع، وربما يجعله الله في فيه عسلاً!، وحسب ميزانه يقول: "لا نقلد في علمنا بالله وبغير الله إلا الله. فلا نزال نصيب أبداً ولا نخطئ"[4].

هذا صحيح لأنه لا وجود لوحدة الوجود إلا ميزان وحدة الوجود.

وهناك حسب ابن عربي طريقاً آخر لاكتساب العصمة، يقول: "فنحن معصومون. لأن يدنا يد حق، فإنها يد الوكيل، وهذا لا يُعلم إلا بالكشف"[5]، وزيادة في الشرح، قال: "لقد رأيته سبحانه وتعالى في النوم، فقال لي: وكِّلني في أمورك، فوكلته، فما رأيت إلا عصمة محضة، لله الحمد على ذلك"[6]، والكشف حسب وحدة الوجود، يقول: لا فاعل إلا الله، وإذا وقع الجبر، فالكل معصوم، ولا وجود عندها للجنة أو النار! وبميزان

---

[1] - ص٥١٥ ج١ بـ٦٩ الفتوحات المكية
[2] - ص١٠٢ ج٢ بـ٧٣ نفسه
[3] - ص٦٧٥ ج١ بـ٧٢ نفسه
[4] - ص٢٩٠ ج٢ بـ١٧٢ الفتوحات المكية
[5] - ص٢٠٠ ج٣ بـ٢٤٨ نفسه
[6] - ص٢٦٤ ج٢ بـ١٦٢ نفسه

وحدة الوجود، اتهم محمد صلى الله عليه وسلم بتحريف الوحي بالهوى، لاستبداله توحيد لا موجود إلا الله، أو ما ثم إلا الله، بتوحيد لا إله إلا الله، توحيد الفرق، يقول:

"عجبت لمعصوم يقال اتبع ولا تبتدي واحكم بما أنزل الله
وكيف يُرى المعصوم يحكم بالهوى مع الوحي والتحقيق ما ثم إلا هو" [1]

وبالنتيجة لا فرق في العصمة بين النبي والولي إلا الفرق الأدبي الذي سيَّان إن غاب أو حضر.

* الولي الكوني أعظم من محمد مكة: لقد قارن الولي الصوفي نفسه بالنبوة حتى زعمها وأصر عليها بكل ما لديه من أساليب الجدل، ولكنه لم يزل مهان المقام بين الناس، ولا إشارة إليه إلا بالعته والجنون، وحيث انتابه الاكتئاب من مأساته قرر الهرب من عالم البشر للبحث عن قيمته التي لا يدانيها إنسان ولا نبي، فاستعار حكومة الآلهة من أسلافه في بابل، ليزعم لنفسه المسؤولية عن حفظ الكون وإدارة شؤونه، ولما أرادها حكومة عصرية بنسبها إلى محمد صلى الله عليه وسلم، أتى بجبة الإنسان الكامل من حرَّان وبقايا اليونان، وبعنوة التأويل والموضوع من الأحاديث، وبامتداد التفريق، بين نبوة الولاية ونبوة التشريع، كان له الفرق بين محمد الظاهر أو الذي ظهر في مكة ومحمد الباطن أو الروحي الحامل لحقيقة محمد، المتجلي على كل أنبياء التاريخ. وبهذا كله كان

[1] - ص١٨٦ ج٣ بـ٣٤٦ نفسه

ارتداء محمداً صلى الله عليه وسلم لتلك الجبة، عنوة وحيلة، وبالوراثة أصبح الأولياء مسؤولون عن حفظ الكون وإدارة شؤونه لا فرق في هذا بينهم وبين الآلهة، يقول الشعراني وهو يحدثنا عن الحكومة أو دولة الأولياء الكونية أو الروحية التي القطب رئيسها كخليفة لله، قائلاً عن القطب أو مقام القطبية: إنه "مقام ثقيل لتحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية كلها، ملوكها ورعاياها- وبالقطب تحفظ دائرة الوجود كله من عالم الكون والفساد- وبالأوتاد يكون حفظ الجنوب والشمال والمشرق والمغرب، وبالأبدال يكون حفظ الأقاليم السبعة، وبالقطب يحفظ الله جميع هؤلاء، لأنه هو الذي يدور عليه أمر الكون كله"[١]. وأين هذا كله من محمد مكة؟!

وعن أخذ البيعة من رعايا القطب كخليفة لله تعالى، يقول ابن عربي: بعد أن ينصب الله جل جلاله العرش أو السرير، لأخذ البيعة للقطب "قعد عليه – القطب – بصورة الخلافة، وأمر الله العالم ببيعته على السمع والطاعة في المنشط والمكره- وأول من يبايعه العقل الأول، ثم النفس، ثم المقدمون من عمّار السموات والأرض من الملائكة المسخرة، ثم الأرواح المدبِّرة للهياكل التي فارقت أجسادها بالموت، ثم الجن..."[٢]،

---

[١] - ص٨٤ ج٢ م٤٥ اليواقيت والجواهر
[٢] - ص٧٩ ج٢ بـ٤٥ الفتوحات المكية

"وكذلك مبايعة النبات وسائر الحيوان للقطب"[1]، "ومن خصائص القطب – كما يقول – أن يختلي بالله وحده"[2] كمستشار أول أو للتشاور مع الله في مجريات الأمور!

---

[1] - ص٨٠ ج٢ بـ٤٥ نفسه

[2] - ص٨٠ نفسه

- الختم بين الولاية والنبوة:

محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل، وتيمناً بهذا اللقب ومساواة للأولياء بالرسل، قال المتصوفة بختم الولاية علماً "أن عبارة ختم الولاية لم ترد في قرآن أو حديث"[1]، "ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين – للتصوف – بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي"[2]، "المتوفى سنة ٢٨٥ هـ، ولكن كتابه "ختم الولاية" الذي كان من أسباب نفيه من ترمذ قد ضاع"[3]، فالترمذي تساءل قائلاً: "من الذي يستحق خاتم الأولياء كما يستحق محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة؟"[4]، وبقي ابن عربي بعده من أهم الذين تكلموا عن الختم ومن أهم الزاعمين له.

لقد رأى ابن عربي أن الختم ثلاثة: خاتم الولاية المطلقة أو العامة وهو لعيسى، وخاتم الولاية المحمدي وهو له، والختم الثالث هو ختم الأولاد، لم يذكره ابن عربي إلا مرة واحدة، وهو "الذي ليس بعده ولد في هذا النوع الإنساني، وهو الذي يدعو الناس إلى الله فلا يجاب"[5]، وعلى قومه تقوم القيامة وبذلك فهو "خاتم الإيمان فلا مؤمن بعده، وهو ولي

[1] - ص١٨٩ مجلة التراث العربي ٣٥ – ٣٦، ١٩٨٩م
[2] - ص٤٩ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
[3] - ص٢٩٧ التصوف الثورة الروحية في الإسلام
[4] - ص١٨٩ مجلة التراث العربي ٣٥ – ٣٦، ١٩٨٩م
[5] - ص١٨٩ نفسه

شيثي، ولكن بالمعنى العام للولاية"[1]، فالولاية إذن بحسب نصوصه "مثلثة الختم"[2].

خاتم الولاية العامة: يقول ابن عربي أن عيسى عليه السلام هو خاتم الولاية العامة أي ولاية الرسل والأنبياء:

"ألا إن ختم الأولياء رسول وليس له في العالمين عديل
هو الروح وابن الروح والأم مريم وهذا مقام ما إليه سبيل "

وليس يختم إلا ولاية الرسل والأنبياء"[3]، "فعيسى عليه السلام- خاتم الأنبياء- فالولاية مطلقة بنبي رسول"[4]، "فإذا نزل إلى الأرض في آخر الزمان أعطاه ختم الولاية الكبرى من آدم إلى آخر نبي- أعني الولاية العامة"[5]، "ولا بد من حكمه فينا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، يوحي الله بها إليه من كونه نبياً- فيأتيه الملك مخبراً بشرع محمد صلى الله عليه وسلم، وقد يلهمه إلهاماً، فلا يحكم في الأشياء بتحليل وتحريم إلا بما كان يحكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد يكون له من الاطلاع على روح محمد صلى الله عليه وسلم كشفاً- فيكون عيسى عليه السلام صاحباً وتابعاً من هذا الوجه وهو عليه السلام من هذا الوجه

---

[1] - ص١٩١ نفسه
[2] - ص١٨٨ نفسه
[3] - ص١٩٥ ج٤ بـ٥٥٧ الفتوحات المكية
[4] - ص١٥٠ ج١ بـ١٤ نفسه
[5] - ص٥١٤ ج٣ بـ٣٨٢ نفسه

خاتم الأولياء. وهو أفضل هذه الأمة"[1]. فعيسى عليه السلام هو خاتم الولاية التي في الأنبياء وهي التي سماها المطلقة والعامة والكبرى. أما محمد صلى الله عليه وسلم، فهو خاتم الجانب التشريعي في النبوة لا خاتم الولاية لأن الولاية مستمرة بعده.

خاتم الولاية المحمدي: يقول ابن عربي: "وأما ختم الولاية المحمدية فهو أعلم الخلق بالله. فهو والقرآن أخوان"[2]، فـ "الختم الخاص هو المحمدي، ختم الله به ولاية الأولياء المحمديين، أي الذين ورثوا محمداً صلى الله عليه وسلم، وعلاماته في نفسه أن يعلم قدر ما ورث كل ولي محمدي من محمد صلى الله عليه وسلم، فيكون هو الجامع علم كل ولي محمدي وإذا لم يعلم هذا فليس بختم"[3]، و "خاتم الأولياء "هذا" كان ولياً وآدم بين الماء والطين، وغيره من الأولياء ما كان ولياً إلا بعد تحصيله شرائط الولاية. وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم"[4]، ومجلى من مجالي الحقيقة المحمدية، شأنه في ذلك شأن الأنبياء "فجميع الأنبياء والأولياء صور أو مجالي تجلت "أو ظهرت فيها الحقيقة المحمدية أو الروح المحمدي"[5]، وروح خاتم الولاية المحمدية "هو الممد

---

[1] - ص١٨٤ – ١٨٥ ج١ بـ٢٤ نفسه
[2] - ص٣٢٩ ج٣ بـ٣٦٦ نفسه
[3] - ص٤٤٢ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[4] - ص٦٤ ج١ فصوص الحكم
[5] - ص٢٩٨ – ٢٩٩ التصوف الثورة الروحية في الإسلام

لسائر الأولياء والأنبياء والرسل بعلمهم الباطن"[1] من حيث هم أولياء، فولاية الولي أعظم من ولاية النبي، طالما أن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته"[2]، "فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء، وإن كان خاتم الأولياء تابعاً للحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لا يقدح في مقامه- فإنه من وجه يكون أنزل "من النبي أو الرسول" كما أنه من وجه يكون أعلى"[3]، "فخاتم الأولياء يطيع خاتم الرسل في الظاهر، أي فيما يتعلق بالتشريع، أما في الباطن فإن خاتم الأولياء أرفع درجة"[4].

- العلاقة بين خاتم الولاية المطلقة وخاتم الولاية المحمدية:

وإذا ما كان خاتم الأنبياء من حيث هو ولي، يستمد معارفه بالله أو المعارف الباطنية من خاتم الولاية فإن خاتم الولاية المطلقة أو عيسى عليه السلام شأنه شأن كل الأنبياء محكوم بالختم المحمدي "فعيسى عليه السلام وإن كان ختماً فهو مختوم تحت ختم هذا الخاتم المحمدي"[5]، ولما كان عيسى هو خاتم ولاية الأنبياء، وابن عربي هو خاتم الولاية

---

[1] - ص٣٠٠ نفسه
[2] - ص٤٩ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
[3] - ص٦٢ ج١ فصوص الحكم
[4] - ص١٧٩ التصوف في الإسلام
[5] - ص٥١٤ ج١ بـ٣٨٢ الفتوحات المكية

المحمدية، "فإذا نزل – عيسى – وإن نزل بعده. أي بعد خاتم الأولياء – فإن خاتم الأولياء يكون ختماً لولاية عيسى"[1] عليه السلام.

- ابن عربي خاتم الولاية المحمدية:

يقول ابن عربي: "وللولاية المحمدية المخصوصة بهذا الشرع المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ختم خاص هو في الرتبة دون عيسى عليه السلام لكونه – أي عيسى رسولاً – وقد وُلد – هذا الختم المحمدي – في زماننا ورأيته أيضاً واجتمعت به ورأيت العلامة الختمية التي فيه، فلا ولي بعده إلا وهو راجع إليه، كما أنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم إلا وهو راجع إليه كعيسى إذا نزل. أو كإلياس وعيسى والخضر في هذه الأمة"[2].

وقد مرَّت معنا من قبل قصة الشعرة النبوية التي في ابن عربي، والتي فسرها بالعلم الباطن، وها هو الآن يحدثنا عن شعرة أخرى، تكون علامة لختمه الولاية، ولكنه يتردد، وباستحياء المادح نفسه، يقول: "وعلمت حديث هذا الخاتم المحمدي بفاس. عرفني به الحق وأعطاني علامته، ولا أسميه، ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، منزلة شعرة واحدة من جسده صلى الله عليه وسلم"[3]. فابن عربي يخشى إنكار

[1] - ص١٩٥ ج٤ بـ٥٥٧ نفسه
[2] - ص١٨٥ ج١ بـ٢٤ الفتوحات المكية
[3] - ص٥١٤ ج٣ بـ٣٨٢ نفسه

المنكرين ولا بد له من الاعتماد على التلميح والتلبيس ولو إلى حين، لذلك نراه يقول: "وأما ختم الولاية المحمدية فهي لرجل من العرب، من أكرمها أصلاً ويداً، وهو في زماننا اليوم موجود، عُرِّفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ورأيت العلامة التي له، أخفاها الحق فيه عن عيون عباده، وكشفها لي بمدينة فاس، حتى رأيت خاتم الولاية منه. وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق في سره من العلم به"[١].

فابن عربي كما ينتمي بنسبه إلى الأنصار العرب، كذلك فإن اسمه يواطئ اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو على أخلاقه وبذلك – كما يقول: "استحق – محمد صلى الله عليه وسلم – أن يكون لولايته الخاصة ختم يواطئ اسمه اسمه صلى الله عليه وسلم ويحوز خُلُقه وما هو بالمهدي. والختم ليس من سلالته الحسية، ولكنه من سلالة أعراقه وأخلاقه صلى الله عليه وسلم"[٢]. وهو ما عناه ابن عربي بالشعرة الجسدية الواجب وجودها في خاتم الأولياء، إلى جانب الشعرة الباطنية التي حدثنا عنها من قبل. وهل سيبقى ابن عربي طويلاً أمام التردد وخشية المنكرين؟ وها هو أخيراً قد فضَّ كل الألغاز والأسرار في فتوحاته تلك التي جعلها الترمذي عقبة لمن رامى أن يزعم لنفسه ختم الولاية.

[١] - ص٤٩ج٢ بـ٧٣ نفسه
[٢] - ص٥٠ ج٢ بـ٧٣ نفسه

وفي مبشرة رآها ابن عربي سنة ٥٩٩ هـ في مكة، رأى أن الكعبة مبنية بلبن من ذهب ولبن من فضة وفيها جدار ينقص لبنتين، يقول: "فرأيت نفسي قد انطبعت في موضع تلك اللبنتين فكنت أنا عين تينك اللبنتين وكمل الحائط، ولم يبق في الكعبة شيء ينقص-. واستيقظت فشكرت الله تعالى، وقلت متأولاً: إني في الاتباع في صنفي كرسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنبياء عليهم السلام، وعسى أن أكون ممن ختم الله الولاية بي"[١] كما ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم النبوة.

أما عن السبب الموجب لكونه عين تينك اللبنتين فهو أنه في التشريع الذي اتبع به الرسول له إدراك ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، كما هو دون ترجمة، وتلك هي لبنة الفضة، وله من حيث اختصاص الولاية بالباطن المرموز لها بالذهب أن يكون ختمها، وبالختم يكون اجتماع حقيقة التشريع وحقيقة الباطن، وبابن عربي كان كمال الدين من النقص على مستويي الظاهر والباطن، وهكذا كان ختم الأتباع وختم الولاية. وفي عنقاء مغرب يقول ابن عربي: "فإني أنا الختم، لا ولي بعدي ولا حامل لعهدي"[٢]، "وإنني خاتم الأتباع أجمعهم"[٣]، ويقول في فتوحاته:

"فقمت على ساق الثناء ممجدا   فجاءت بشارات المعارف بالختم

---

[١] - ص٣١٩ ج١ بـ٦٥ نفسه

[٢] - ص٤٧٣ الصلة بين التصوف والتشيع

[٣] - ص٤٧٤ نفسه

فسبحان من أحيا الفؤاد بنوره وخصصني بالأخذ عنه وبالفهم" [1]

"فخصصني الله بخاتمة أمر لم يخطر لي ببال، فشكرت الله تعالى"[2].

"فإني به خَتَمَ الولاية مثل ما ختم النبوة بالنبي المرسل" [3]

"أنا ختم الولاية دون شك لورث الهاشمي مع المسيح" [4]

"وتلامذة ابن عربي كذلك يؤكدون أنه هو نفسه خاتم الولاية المحمدية"[5] لا سواه من الأدعياء الكذبة، وما أكثر الأولياء الذين زعموا هذا المقام!

---

[1] - ص٦٢٥ ج٢ بـ٢٨٤ الفتوحات المكية

[2] - ص٣٢٣ ج٣ بـ٣٦٥ نفسه

[3] - ص٨٤ ج٣ بـ٣٢٣ نفسه

[4] - ص٢٤٤ ج١ بـ٤٢ نفسه

[5] - ص١٩١ مجلة التراث ٣٥ – ٣٦، ١٩٨٩م

- الخاتمة:

الولي الصوفي نبي، ومقام النبوة عنده مساوٍ لمقام النبي صلى الله عليه وسلم، إن لم يكن أعلى منه مقاماً، لا يأخذ عقائده إلا من تجربته مع العيان أو الكشف أو التجلي، التي هي أفضل من الأخذ عن طريق الإيمان، فلا إيمان لديه، وليس لديه إلا الصواب والحقيقة، وبمعرفته التي لا شك فيها، اتخذ توحيد الوجود، بديلاً عن توحيد لا إله إلا الله، كما كان له الشرع الخاص به وبأحواله المختلفة عن شرع أصحاب الفرق أو الإيمان.

ولكن ألا يعني هذا كله، أن التصوف دين مختلف عن غيره من الأديان، طالما له أنبياؤه وشرعه وعقائده وكتبه؟ ولو عدنا إلى باطن التاريخ لوجدنا الفصاحة على لسان الولي شامان، لتشهد بأن التصوف عريق جداً بوجوده، فهو الموجود بالاجتهاد مع الإسلام، وقبل الإسلام، ومن حدَّه بالصدر أو بحصرٍ وعصر، فمِن غِرِّه حدَّه.

- الفهرس: